وردةٌ
على خدّ الحياة

عنوان الكتـــاب: وردةٌ على خدّ الحياة
المـــوضــــــوع: نثريات قصصية
التـأليـــــــف: أحمد هُوَيْدِي
مراجعة لغوية : أحمد هويدي
الإخـراج الفنى: محمود عنتر
تصميم الغـلاف: عبد الرحمن محمد
رقـــم الإيــداع: 3212/ 2021
الترقيم الدولى: 0- 209- 844- 977- 978
الناشـــــــر: منشورات الفنار

www.facebook.com/elfnaar
elfnaar@gmail.com

ڤيلا الأشراف- أمام بوابة هليوبوليس- مدينة بدر- القاهرة الكبرى
المدير العام / أ. مصطفى أمين

01013483506
01550102499

منشورات الفنار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

وردةٌ
على خدّ الحياة

مشاهدٌ مُقتطَفة

أحمد هُوَيْدِي

الإهـــداء

إلى أبويّ الأُمّيّين.

إلى والدي الرّوحي د / أحمد إسماعيل رحمه اللّه

أستاذ الصيدلة الصناعية

جامعة الأزهر

فرع أسيوط

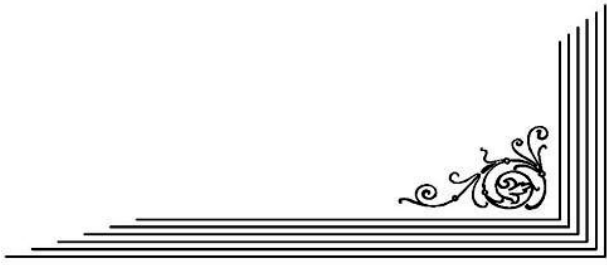

،

"إلى من يَحِنُّ إلى بيتٍ لا يذبُلُ الورد على شُرفته، ويسقط الحب عليه كالنّدى، ويكون ليلُهُ كالصّلاة آمناً فيها من كل خوف، إليكَ كتابي"

بسمِ الله، وما ليْسَ مبْدوءاً به أجذمُ العَلا.

التحيّــاتُ لله الملك الأعظم، والصّلوات على شــفتي، والذّكرُ نوري في السّــواد الطّليق، ورفيقي في النّســماتِ الحزينة، والرحيــقُ رجائيَ الذي يفوح.

أدعــوك وأنا ظمآن الروح، مــلآن الكفّ، قلبي يُغرّد، ولســاني يبوحُ بــالأسرارِ التي تعلمها، ووجهــي يتقلّب في الســماء، ووجهتي إليك، أن تجعلَ الكلماتِ برداً وسلاماً على قلوب القارئين، وخالصةً لوجِهك الكريم.

المشهدُ الأوّل

سُبْحانَ من وَهَبَكَ الضّوء

تُشــيرُ الســيدةُ والدهشــةُ تقفزُ من عينَيْها إلى الحاضرِ الوحيدِ الذي يستمعُ إلى الأعاجيبِ والأساطيرِ هذه الأيام قائلةً: إنه يَرْكُل.

وســيادتُكَ في الداخلِ تتفاعلُ مع هذا الشُّعور، فتُكرّرَ الرّكلاتِ واحدةً تلــو الأُخرى، وهي تندهشُ وتضحكُ، ويتخلّى السّــيدُ عن سُــكُونه، بعد أن أثارَ المشــهدُ فضولَهُ، فيتحركَ تِجَاهَها، ويضــعَ يدهُ على بطنها فتهدأ، وتتوقّف ركلاتُك لوقتٍ قليلٍ، فيتَبَادَلَانِ النّظرَ إلى بعضهما، ويبدأُ الشّجارُ بينهُما، وأنتَ السّببُ في توقّفِه، وأنا لستُ السبب، حتّى تُعاودَ الرّكلَ، وفي أقدامِك قوّة، كأنّك تقول لهما: أنا لا أريدُ أيّ إزعاجٍ هنا!

فيضعُ السيّدُ رأسهُ على بطنِها؛ كي يُنصتَ إلى مقدارِ قوةِ ركلتك، فأنتَ قوتُهُ القادمةُ في حياةٍ يفقدُ فيها قوّتَهُ يوماً بعد يومٍ.

وتُراقبُ المُشــاهدينَ من الدّاخلِ، وهُمْ يتخيّلونَ ملامحَك، وينسِبُونَها إلى أنفسِهم من قبلِ خُرُوجِكَ إليهم، ويحْتارُونَ في جِنسِكَ حَيرةَ من تَختلطُ عليهمُ الألوان، ولا يَســتطيعونَ التمييز بينَ المِلحِ والسُّــكر، أذَكَرٌ أنتَ أم أُنثى، ومن ستُشبهُ أكثر أباكَ أم أُمَّكَ، حتّى الأجدادِ يُريدونَ أن تُشبِهَهُم.

****

هذهِ البطْنُ الضيّقةُ تتّسِعُ مع مرورِ الأيّامِ، وتُمّدُّك بشتّى سُبُلِ الرّاحةِ؛ لتنعمَ بنومٍ جميلٍ، ويحظى جسدُكَ بالرّعايةِ الكاملةِ الكافيةِ؛ لتحيا سليماً آمناً مُعافى، وتزدادَ طُولاً وحجماً، وتتّضحَ ملامحُ وجهكَ، وجِنسِكَ، ويقتربُ النّورُ من عينيك.

ومعَ لحظاتِ الحَمْلِ الأخيرة، واقترابِكَ منَ الخروجِ إلى الحياةِ، تُدَقُّ في البيتِ الطّبُولُ، وتُسمعُ فيهِ مزاميرُ البهجة، وأصواتُ العجولِ التي ستُقامُ منها الولائمُ تصنعُ لحناً موسيقياً جذّاباً، يجذبُ الجيرانَ وجيرانَهم، الكلُّ في حالةِ تأهُّبٍ وترقُّبٍ، وتساؤلٍ غيرُ اعتياديّ، متى تضعُ ذاتُ الحملِ حَملها؟

كما يقومُ أهلُ البيتِ بفصلِ أجهزة التكييف عن البيت كله مخافة أن تبرد سيادتك، وأجهزة التلفاز والهاتف مخافة أن تنزعج، ثم مع قدومك تعلنها صريحة للجميع: أنا ضوضاء هذا العالم!

فتمطر عليهم وابلاً من صرخاتك، وصيحاتك، وركلاتك، حتى يحملك الأب، ويُطلقَ أنفاسه بالأذان في أذنك اليمنى، ويُقيمَ الصلاة في أذنك اليسرى، ويضمك إلى صدره كي يشمّ رائحتك؛ فيبتلَّ خدّه من بكائك. ولا تهدأ حتى تأخذ ثدي أمك الدافئ؛ فترضى، وتُغمض عينيك، وتنام.

فيخرج من أفواه الجميع زفيرٌ كأنهم منتصرون في نفير، وينامون حولك كأنهم عائدون من حرب، ويستيقظون من نومهم على حين فجأة، كأنهم يرتقبون عدواً، فيخافون أن تباغتهم بصرخة، أو بركلةٍ من أقدامك الرّقيقة على بطونهم، كما كنت تفعلُ وأنت في أحشاء أمك.

****

سُبْحانَ من وهبك الضّوء، وأجرى الهواءَ في أنفِك، وأسْمعكَ زغاريد البهجة!

هــا هيَ عيناك تفتحُهما للمرّة الأولى، بعد خروجك من ظلماتٍ ثلاث، هُنّ: ظلمة البطن، والمشيمة، والرحم.

فتجــدَ حولك امرأتــان، لا يفرح بولادتك أحدٌ مثلهــما، واحدة منهما تظهــر في وجهها الأوردةُ جرّاء عناءِ الولادة، والأخرى تظهر في يديها جرّاء عناءِ الحياة، الأولى هي أمُّك، والثانية جدتك.

فتحملــك الجدة وتضــع قبلاتها علي الخدّ، وأناملهــا علي الصدر، ثم تــتركك بين أحضان الأم، في أول لقــاءٍ منفردٍ، وأولِ عنــاقِ حقيقيّ، وأولِ فيض من الرحمات يستشعرُها من دنا منكم، وأولِ آية من الآيات الإلهية التي تتنزل واحدةً تلو الأخرى جراء الزواج المقدس، وأولِ حالة حب علي الفطرة، وأولِ سِتار علي العورة، وأولِ أولٍ من كل شيء.

وبعــد أن تتجلّى كل صفات الأمومة، تســقيك من لبنها حدّ الشِّــبع، وتظل تلعب معك حد التعب، وتسهر عيناها؛ لأجل أن تنام، وهي تُغني لك من أغاني الأجداد.

****

وتمضي الأيام والأشــهر، وأنت أسير لوجه الشمس الذي تمتلكه السيدة أمك، ولصدرها الذي تنــام فيه كنواة تمر مغلفةٍ بأحضانها؛ أحضانها التي نبت منها جسدك، ووُلد منها السلام لقلبك والسكينة.

وقد كنت مثل أي طفل منقســم، تنهض من نومك تاركاً أحضان أمك،

باســطاً يديك على وجه أبيك الذي يُشارككم الفراش، ضارباً وجهه بكفك الصغير، لعله يســتيقظ فيلعب معك كما يفعل كل يوم، ولا تقبضُ يديك حتــى يُغمض عينيه، ويَفتــح جِفنيه، ويظهر الســواد في البياض، وينظر تجاهك كأنك قدره الذي وَارَتهُ الأيام، ويقول: يا وليدي، يا زهرةً نبتت في بيتي، يا رائحةً لا أمَلُّ من شــمّها، عليك أن تنام، فجســدك الهزيل لا يكبر إلا مع النوم، وكعادة الأطفال، كنت تدفن نفسك مع الشخص الذي يفتح ذراعيه أمامك، دون أن تكترث بمشاعر من كنت معه قبل ذلك!

❋❋❋❋

تدرّجت في النّمو حتى أصبحت تتسلّق الفراش، وتفرض نفوذك عليه؛ فتنام وســطه في وضعياتٍ عجيبةٍ، فيما يَمْكُثُ الوالدان كالحراس المُتعبين، يُراقبونــك وأنت تنامُ نــوم الملوك، ويخافون تحريــكك؛ لكيلا تملأ البيت صَخباً، ونكداً، فيســهرون قُرب السّرير، حتى يخطفهمُ النوم قُربه، ويطرد مــن عيونهــم الأرق، ويُلقِي عليهــمُ الأحلام، فينامون نومــاً يترقّبونَ فيه صوتَك، ويتحسّسونَ فيه أنفاسك.

وعندما ينهضون يُفاجئون بالنوم الــذي خطفهم، وينظرون إليك فلا يجدونك، فتبــدأ فرقة التدخل السريع في البحــث عنك، فيجدونك قرب الباب، تضع إصبعك أســفل منه، تريد الخروج من الغرفة، ومفارقة النوم فيهــا، ومعانقة هواء جديد، تنبعث نســماته من أســفل الباب، فتخرج

الصيحات من أفواههم: عد إلى هنا أيها الصغير، فنحن لا نستطيع التحكم فيك داخل غرفة، فماذا ستفعل فينا عندما تخرج إلى العالم؟!

ثــم يتكرر وقوفــك أمام الباب يومياً، وتبدأ قبضتك الحديدية تشــتد يومــاً بعد يوم، ووقفتك تُنبئُ عن رجل لن تقف أمامه الأبواب، ولن يهدأ له بالٌ حتى يفتحها، فتطرق عليه؛ رغبة في تلبية أمر الخروج، وبياناً رسمياً تعلن فيه بأنك لن تخضع لأســاليب التحكم، وأن تلك الأبواب والجدران لا يمكنهــا أن تكبح الشــغف بداخلك، فتخرج صيحاتك من بئر الجســد، وينطلق لســانك بكلمات لا يفهمها أحد، كأنك تقول: أريد الخروج، أريد أن أكون حراً!

فيُعيــدك الأب ويحنو عليك، ويحدّثــك بصوت خافت فيقول: يا ولد، أخــاف أن يُبكيك غبار البلد، أو يذهبَ بريقك تحت ضوء الشــمس، أو يخدعــك طول النهار، فيحِــلّ الليل وأنت وحيــد، ولا تعرف الطريق إلى المنزل، وتظنّ وأنا على قيد الحياة بأنك مفقود، أو تائه، أخاف أن تشــعر بهذا!

لكنّني لــن أكون أمام الباب دائماً؛ لأمنعَ خروجــك؛ لأنّ خروجك أمرٌ مُحتّم، ولا أســتطيع الوقوف أمام رغبتك كثيراً، سأفتح لك الباب لكن قبل أن تخرج تذكّر: إن وراء كلّ بابٍ أبّ.

****

في وَهْجِ النهار تخرج إلى الساحة الكبرى، تهبط درجات السلم، تسمع أصوات العصافير، مِواء القطط، وتتبع أثر الصغار في الشــارع، فترى بعض الصبية حافِــين، يركضون وراء بعضهم في الوحل، يجمعون الحشــود عن طريق هتافاتٍ لا تفهمها أنت، وصافرات لا تعرف كيف يفعلونها بأفواههم!

وبينما يقفون جميعا، تهرب أنت خلف جدارٍ، أو عمود، وتُشاهدهم مــن بعيد، وتراهم وهُم يلعبون، ويتشــاجرون، ويركضــون، ويتكلمون، ويُحدِثــونَ ضوضاءَ وجلبــة، ولا يتحكّم فيهم أحــد، ولا يمشي حكم أحدٍ عليهــم مــن الخارج، كبــيراً كان أم صغيراً، يُنهون الخلافــات فيما بينهم، ويتفاعلــون مع بعضهــم البعض، والغلبة دائماً ما تكــونُ لِلأقوى، والقوةُ دائماً ما تكونُ لِلأكثرِ جُرأة.

وجــودك في الشــارع يُنهِي أيام المُشــاهدة سريعاً، ويُوقِــدُ فيكَ حُلمَ المُشاركة في الألعاب، ومُجاورة الصغار في الأماكن، ومُجاراتهم في الشّعبية، ومُنافستهم في كل شيء.

ويجيءُ اليوم ويُنادونكَ، ويسألونكَ: هل تلعب معنا؟

فتُطأطئُ رأســك ملهوفــاً، وتقضمُ أظافــرك من التّوتــر، وتتقدّمُ إلى السّــاحة، وتُعلن اســمك للجميع، وتدخلُ في الأجواء سريعاً دون الحاجة إلى مُقدّمــاتٍ؛ لأنّك راقبتَهم كثيراً في الأيام التــي مضتْ، وبِتّ قادراً على فهم الأحداث.

تتنفّس الصّعداءَ كأنّك وُلدت من جديد؛ فمجيئُك من بين جُدران الغُرف، ومَشْيُكَ تحت ظلّ السماء، ونظرُك تجاه الشّمس، وعرقُك من الرّكض الكثير، وتعبُك من اللعب، وسقوطك على الأرض، وقيامُك السّريع، وهَبَك تحدّياتٍ جديدة، وجعلك وَليدُ المُواجهة.

ثم تعودُ إلى المنزلِ وأنتَ تُلوّحُ إلى والدك بانتصارٍ كبير، وتقُصُّ عليه تفاصيلَ التّفاصيل، كأنّك تُقدّمُ نشرةَ أخبار العاشرة، فتروي ما حدث في اليومِ كلّه، دونَ أن يتعبَ لِسانُك الصغير، وهو يتفاعلُ معكَ على استحياءٍ من مُقاطعتك، أو إحراجِكَ؛ لأنّك كثيرُ الكلام، ويُشجّعُكَ بالكلماتِ، ويُصفّقُ إذا فعلتَ شيئاً جديداً نافعاً، ولا يتوقّفُ عن تشجيعك أبداً، ولا يملّ من الوقوف وراءَ كُلّ جميلٍ تصنعُهُ في بدايةِ عُمرك.

وإذا رأى ثيابك مُتّسخة، وأطرافَكَ مُلوّثة، نصحكَ برَشّ الماء على جسدك، وتغيّير ثيابك قبل أن تراكَ أُمّك؛ لأنّها ستصنعُ معكَ المشاكل، ورُبّما تضربك؛ لأنّك لم تُحافظ على نظافتك، وهذا شيءٌ يُزعجها، حتى منه شخصيّاً.

وتتذمّرُ أمّك من كثرة الملابس المرميّة على الأرض، والمُتواجدةُ على الباب، وفي غسّالة البيت، ولا يتحدّثُ أبوك مُطلقاً، وإلا سيعودُ عليه ذلك بالضّرر، فتقفُ دونَ أن يُدافع عنك، وتتحمّلُ كُل هذا الغضب وحدك.

وبعــدَ أن تهــدأ العاصفة، وتسْــكُنُ الأجواء، يُخبرك أبــوكَ عن مكانٍ ســتُحبّهُ كثيراً، أكثرَ من رَكلك الكُرة، وركضك في الشّارع، واختبائك خلف الجُدران، ومنهُ ستُصبح قائداً، ثمّ يسألك: ألا تُحبُّ أن تُصبحَ قائداً؟

فتقول بلهفة: بلى أحب، أخبرني فقط من سأركل في الغد؟

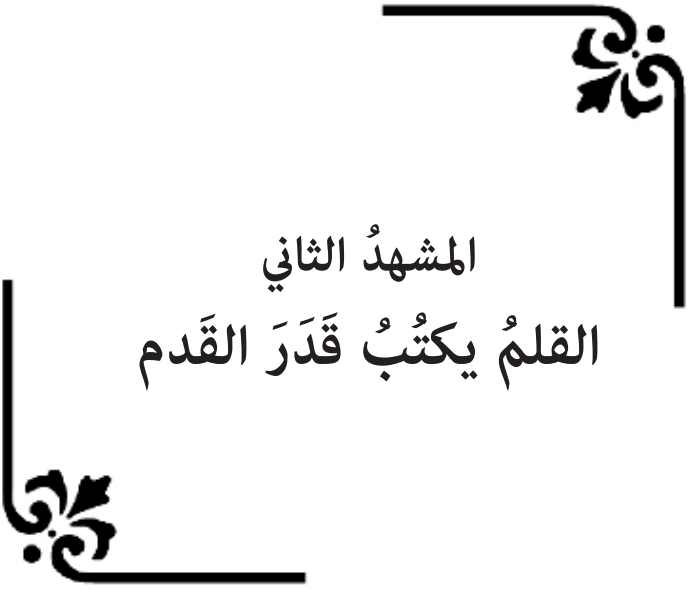

المشهدُ الثاني
القلمُ يكتُبُ قَدَرَ القَدم

كان على السيد أبيك أن يدفع ضريبة ذهابك معه، فيُرقِيك بآيات الله وصفاتــه؛ كي لا تُصيبك عــين، ويحملك على كتفه من قبل أن تخرجوا من عتبــة الدار؛ كي لا تَملّ عــلى أول النهار، ويُظلّل عليك بأي شيء؛ لأن قُرص الشــمس قد صعد وتربّع على السماء الدنيا، ويُعطيك من جيبه ما يجعل قلبك ليناً؛ لأنه يفهــم ضعفك حِيال لغة المال، ويركض كلما صار الطريق فارغاً؛ لأجل أن تضحك وتعلو البشاشــة وجهك والسرور، حتى إذا اقترب مــن الدخول بك إلى المــكان الذي يقصده، وضعك عــلى الأرض، وهندم ثيابك، وشعرك المتموّج وهو يقول: جئت بك إلى هنا لأجل أن تصبح قائداً ذات يــوم، ويترك في يدك مذكرةً وقلماً، ويتقدّم بك إلى داخل بيتٍ قديمٍ، ويُقدّمــك إلى رجــلٍ ذي هيبة، ثم يضع قبلة عــلى جبينك ويقول: لتعلمَ بأنك بهذا القلم ســتكتب قَدَرَ القدم في المسير، هيا بنيّ تقدم إلى شيخك، حان وقت ركلتك للأرض.

****

بينما عينيك مُعلقة على الراحل، يُقبل نحوك رجلٌ ســيعيش في قلبك أبداً، يُحيّيك بتحيّة الإســلام، ويُرحّب بك قائلاً: مرحباً بالرفيق الصغير، ذو القلب الوليد، والروح الصافية.

فتُقلّــب بصرك فيه، وتُطيل النظر، فتكشــف عن بقايا البكاء أســفل عينيه، وبياض الشــعر حافّة ذقنه، وسلام الشعور في وجهه، إلا أن الخوف

يَعتريك، ويغلِبُ كلّ شــعورٍ آخر، والرّهبــة منه تُنبت فيك أزهارها، ومع هَيْبة المكان الجديد تقلّ أنفاســك، ويصفرّ وجهك تدريجياً، حتى يتخلّى الشــيخ عــن صمته، بعــد أن كان يُحملِــق فيك هو الآخــر، ويُهدّئُ من رَوْعِــكَ، ويُهدِيــكَ علكةً أو حَلْوى، ويُخبرك أن لا تخــفْ، كُلّما قدِمتَ إلى هُنا ســأُعطيكَ الكثير من الحلوى، وســأُطعمك من خــير الله الذي لديّ، ويضعُ قُبلةً على جبينك، ويمســكُ يديك الصّغيرة في يده، ويتقدّمُ بك نحو جَمْــعٍ كبيرٍ من صِغار بَلْدتك، يجلســون في الداخل، يُردّدُ بعضهم القرآن، وبعضهم يقرأُ الأحرف، فتنظر إليهم والدّهشــة تقفز من عينيك، وتقتربُ منهم خائفاً تترقّب، حتّى تحصلَ على مكانٍ تجلس فيه.

****

بعد أن جلســت وســط الصغار، وتفقّدوا وجهك، وتبادلتم الأدوار في النظر، وقف أمامكم الشــيخ، ثم قال: بسم الله، تبارك الذي خلق الأقدام جميعاً، وهذه الأيدي، والأبصار، والآذان، والألســنة، والأنوف، وأنشــأ في القلــوب فطرةً، فطر الناس عليها، أن وراءَ هذا الكون خالق، وخلف تلك النجوم إله؛ إلهٌ يرانا من الســماء، يســمعنا ونحن نقول الله، ونحن نقول "آه" يُحبّ من يحبه، وأســكنه قلبه، ومن يطأ الأرض خفيفاً وأليفاً، ومن كان ولوعاً بالقرآن، والصلاة والسلام على رسول الله محمد.

ويُكمل شــيخك وعلى كفّيه من ســحر الكلام زهــور، عِطرها يفوح،

وأثرهــا يصلُ الرّوح، يحملُ معه البشــائر إلى قلبك الزائر، حتى تعود إلى الديار، ومعك زهرة من زهوره.

❋❋❋❋

الزهرةُ التي رجَعَتْ بك إلى البيت، سُرعانَ ما تكاثرت، وأنجبتِ الكثير من الأسئلة في رأسك.

وأنــت بين هذه الجدران وتحت هذا السّــقف، وعلى جســدك ذلك اللّحاف، وعلى وجهك تلك الوسادة، كيف يراك الله؟

وأنت تمشي في القفر وســط الزحــام، وتركض بين الحقــول المزروعة بنباتات تفوقُك في الطّول، وتذهب مع الصغار لتســبح في النهر، وتغطسُ في الماء، كيف يراك الله؟

وتبقــى دائرة التفكير تدور، والكلام يــتردّد في أذنك كنقرِ العصافير في اللّيــل، ويَسْرِي في نبضِ أوردتك كما يتحــرّك الدم، فيضيقُ عقلك الصغير، ويحــزن قلبك العميق، وتتعلّق روحك الحرة، حتــى يغلبك النوم، والهمّ يأكل ثوبك، من يطرح سؤالا، ولا يحصل على إجابة، ثم يغفو بلا وجع؟ سؤال يجُرّ خلفه أسئلة كثيرة.

❋❋❋❋

عندما تصعد الشــمس، وتجاورك العصافير النحيفة، وتقذف نافذتك بالحصى، يهبط النوم من عينيك، ويســتيقظ الحزن النّائم في قلبك قبلك،

ثــم تفتح جِفنيك لمســار الضوء، وتمســح وجهك النّاعم بيديــك النّدية، وتنهض؛ لتبدأ الركض وراء الإجابة.

فتجيء إلى أبيك، وتســأله "من الله؟ ولماذا يرانِي ولا أراه؟ وكيف يراني وأنا تحت هذا السّقف؟

فيُجلســك قربه، ويشرح بما يُناســبُ وَعْيَك وفِكرَك عن الله، وأنّك لن تراه، ولكن ستشــعُر بوجوده مع كلّ نفــس؛ لأن الله عظيم ليس كمثله شيء، ولا خلــق كخلقه، فلو ترى أن كل بِنايات الدنيا المُرتفعة، قد رُفعت عــلى أعمدة، وحَملت عــدداً مُعيّناً من الطوابــق، لا يُمكنها تجاوزه بعد طابقٍ معين وإلا سينهار البناء، فهل يُساوي عُلُوّها مثقال ذرة من المسافة بين السماء والأرض؟ كلا وعلى الرّغم من هذا رُفعت السماء بدون أعمدة ولم تسقط أبداً.

وهو الذي خلق الشجر والبشر بألوانهم، وأنواعهم، وأطوالهم، وأنشأ في السماء النجوم التي تراها ليلاً، وخلق في الأرض حيواناتٍ كثيرة، وحشرات مختلفة، ورُبّما يكون أصغرها النّمل، الذي تراه يزحفُ على الأرض، ويمشي على الجُدران، فالله يراهُ، ويَسمعُ دَبِيبهُ على صَخْرةٍ صمّاءَ في ليلةٍ مُظلمةٍ لا ضوء فيها، أفلا يَراك وأنت تحت سقف قد يَخِرُّ على رؤوسنا يوما؟!

فيُجيــب نيابةً عنك ويقول: بلى؛ لأنّه هو الــذي أحياك، وجعلَ قلبك يَخفِــق كالخيط، وهــو الذي يُميتك، فيقطع الأنفــاس عنك، حتى ترتخي حُجر قلبك كالبالون المنفوخ عندما يخرج منه الهواء.

فتخافُ عند ذِكْرِ الموت، وتتكاثرُ الأسئلة في رأسك رويداً رويداً؛ فتسأل: إذا كان قد خلقني، لماذا يُريدني أن أموت؟ ألا يُحبني الله؟

فـلا يملك أبوك إلا أن يبتسـم، ويدعو أن ينجو من أسـئلتك الكثيرة، فيمسـح على شـعرك الناعم؛ كي يَذهب الخوف عن وجهـك، ويُؤكّد في جوابـه القـادم، أن الموت ليس النهايـة، وإنما هو البدايـة كي ترى الله، وتعيـشَ في جنّة عرضُها السـماوات والأرض، فتقفز عـلى حِجره، وتدفن رأسـك في صدره، وتسـبح في بحر أسـئلة جديدة، تَرُجُّ فيك التأمل رجّاً، وترجـو منك البحث عن الأجوبة، وتجُرُّ إليك صُداعاً مُزمناً، كأنه قد خُلق لأجلك؛ لأجل أن تبحث حتى تجد الحق، وترى الحقيقة، وتُدرك الحقائق، وتُوقن أنك مولود لتركل بالقلم، وتتوكّل بالقلب، وتتوسّـل في السـجود، وتتوصّل إلى نهرٍ جميل، بدايته شـلّال، ووسـطه ماء يجري، ونهايته جنّة من أعناب، محفوفة بنخل؛ ولأن بداية النهر بالنسـبة لعقلك الضيق، هو شلال الأسئلة الواسع، على عقلك أن يطلب النجدة، الآن وبسرعة!

❋❋❋❋

همـوم الحياة في البيت، عـلى بعضها البعض تتّكئ، مـما يُجبر أباك على تركه، والسـعي خارجه لأجل ذهاب تلك الغيمة عن سقفه البسيط، والوقوف كدرع أمام سهام الزمن، والتّفاني في العمل مهما بلغ منه الوهن، حتى تحلّ أمطار السـعادة، فتسـقط الغيوم برداً وسـلاماً على القلوب، وتصفو سماء البيت من دخان كثيف.

فإذا ما خرج... وإذ بالعظمة الإلهية تتجلّى في قلب الأم، السيدة التي جعلت خلف باب البيت عالماً محفوفاً بالأمان من جهاته الأربعة، وأمامه شوق لكلّ حبيب قَدِمَ وغادر، وشوك لكل عدو خرج وصادر.

جئت إليها مــن نومك، محمولاً علي الأســئلة، كأنّك قادم من عصور التعب، أو مسافر حمله ثقيل، معه ثلاث شُعَب، ينتظر مرور القوافل، بلا ظليلٍ من الحرّ، ولا يُغني مشيه بخطاهُ القصيرة عن الوصول إلى الوجهة، فتعرف همّك إذا ثَقُــلَ الجفن، وقادك الحنين، وتعرف بحثك عن الأنس، والأشياء المفقودة؛ فتُقصّر المسافات عليك، وتحملك على أقدامها، وتقول: أعرف أن شعورك منبعه القلب، مشتبك بالروح، يندفع بقوة نحو السماء، نحو الطبيعة، نحو المعجزات المُنجزات بواسطة القوة الإلهية، القوة التي لا تغلب، والقدرة التي لن يدركها أحد!

لتعلم بنيّ أن أسرع الناس وصولاً إلى الحقائق هم المتأمّلون، المدقّقون في العجائــب، الباحثــون عن الحقيقــة، الراجون الوصــول إلى الحق عن قريب، صغائر الأمور لا تُشــغلهم، لا يُفكرون كعامّة الناس، ســعيهم كل الســعي خلف ألحان الخلود في الجنّة، ولــكي تتعلم التأمل، ترقّب ظهور الشــمس من النّافذة، ســبّح لله مع العصافير، تهجّد مع الشــجر، تحرك بصمــتٍ كالماء، ثم افتح حُجر القلب؛ لتســتقبل الريــح، وتُعانق الهواء، وأغلق جفون العين كي تُغســل روحك، وتغرق في حب القيوم، وهي تعلم يقيناً أنّه الرقيب على الكون.

وبلمسةٍ منها على رأسك، وبقبلة منها على خدّك، وبحضن منها على حضنك، تكتفي وتحتفي بما قالت: كأنّ كلامها سَحب الأسئلة من رأسك، وشطفها بماءٍ باردٍ بعد حَرّ طال.

****

تمشي كلّ صباح إلى شيخك، تنتشي كلما نظرت إلى السماء، وشممت رائحة الصبح في المطر، وصمتّ صمت أعواد القصب، ومررت على زهور الحقل المبتسمة، ومياه النهر المُحتشدة خلف السد، وأفواج العصافير تحُطُّ على الماء، تشرب ويبقى ظلّها ينضُبُ في الهواء، وفراشة الحقل تزورك على كفّك، وأزهار الماء تتفتح في وجهك، ووقع أقدامك على الحصى كخرير الماء، والطريق إلى شيخك مفتوح كنوافذ بيته، وكفمه الذي تراه مبتسماً كأول زهرة في حقله، لا يملّ، وكأنه قد خلق لهذا!

فإذا جلست أصابك ضوؤه، وبزغ من وجهه إلى وجهك بعدما وضّأك للصلاة، ومن لسانه إلى لسانك عندما علّمك الكلام، ومن قلبه إلى قلبك بينما تتلو آيات الذكر، ومن قدمه إلى قدمك في إتيان بيوت الله، وتُكمل سَيْرَكَ خلفه كالأسير، بينما أنت حُرٌّ في المسير، حتى يتبيّن لك الخيط الأبيض من الأسود، والطريق المستقيم من المعوّج، ونور الهدى من ظلام الضّلالة، وجدار الحدود من أخاديد الذنوب، وترتفع بإيمانك لتبصر العالم أجمع، فتبتلّ حدقة عينك، وتهبط بذُلِّك إلى الصانع، وبكُلِّلك إلى الأرض،

وأنــت مدركٌ لحجمك الطبيعيّ؛ حجمك الــذي كنت تعتقد أنه أكبر من حجم عشرات النجوم!

❋❋❋❋

وتمضي الأيام وتشتدُّ بأساً وقوّة، وعقلك يتفتّح كحدائق ورد، وكشجرةٍ كثــيرةٍ أغصانها، كثيرةٍ ثمارها، يُصبح قلبك مليئــاً بالغصون والثمار؛ الثمار التي أيْنعت تحت الشــمس، وفي ظلّ الحيرة تشبّثَت كثيراً بالغصون، حتى حان قِطافُها.

وكــما يجمع الحُـصّاد الثمار، ويضعونها في صناديق وأقفاص خُصّصَت لهــا، تضع ثمرات بحثك في خانات عقلك الفارغة، فتمتلئ الخانات واحدة تلو واحدة حســب عُمق نظرتــك، وقوة بديهتــك، وقدرتك على مجاراة الأحــداث، لكن توهّج عقلك الصغير لا يكفي لســدّ الخانات، ونار قلبك التي كضوء الشــمعة لا تكفي لتنير العتمة؛ لأن طفولتك البريئة لا يغرّها لمعــان الذهب؛ الذهب الذي يجذب اللصوص؛ اللصوص الذين يشُــمُّون بغرائزهــم، ويفُكّــون الألغاز بأظافرهــم، ولا يُميزون بين معــدنٍ وآخر، يســلبونك كل جميل، ينزعون منــك الإيجابية، ويزرعون فيــك وَهْمَهُم ووهَنَهُم وهَمّهُم، ويتركونك بلا همّة كأنّك بلا قدمين!

ولــكي تكون نهاية كل يوم باردة، تترك نافذتك للريح، وتطلّ منها على العالم، وتُشاهد الصّورة التي لا تتغيّر أمام وجهك، فالأوراقُ تتطاير ويبدو

معها الشــجر كأنه يُحلّق، والعصافير تُهاجر نحــو موطنها، وتفتح الغيوم لها الأبواب، والشمس تجري لمُســتقرّ لها، والأرضُ تفتح لها مقبرة، وترفّ عينيك بالأسى عندما يجيء الليل؛ لأنك تُصبح حَبِيسَ أربعة جُدران، بينما يركض الأطفال في الشارع.

****

يُجاريك الحنين، فتخرج إليهم كل ليلة خلسة أو بإذن، تبتدعون ألعاباً تُسليكم، تختبئون خلف الأسوار، وبين أعواد القصب، وعلى فروع الشجر، وفي البيوت المهجورة، وتنامون على الأرض، وتلتحِفُون بالقشّ من أطرافكم إلى رءوسكم، وتلتفُّون حول قائدكم كي لا تقعون في فخّ الفرقة المُعادية.

وكما تفرحون بكل نصر، تلاقون حتفكم مع كل تقصير أو خطأ.

وحين تختبئ الطيور على الشــجر، وتنام من التعب، وتبتلّ الحشائش مــن الندى، ويرتخي النّاس في البيوت مثلما يذبل الحطب، وتهدأ أصوات العابرين في الشــارع، ولا يبقى إلا صوتُ حناجركم النّاعمة، ترحلون تِباعاً كلٌّ إلى بيته.

وفي النهــار الحارّ؛ إذ يضرب الصيــف النوافذ، حتى يشرب الفم ماءه، ويُخرج الجســد عرقه، تركض نحو النهر حيثُ الصغار على سطحه أخفّ من القشّ في الماء، أو الريشة في الهواء، فتخلع عنك ثيابك، وتقفز نحوهم، وتغرق كثيراً كي تطفو، أو تقطع المسافات بطوله وعرضه، ولأنك لم تستطع

أن تبتغ بين ذلك سـبيلاً، جلست على صخرة، ونظرت بعينيك نحو الجهة الأخرى، وفي قلبك ينبت حلم العبور إليها يوماً ما.

ثـم تضعون هدفاً عـلى الماء، وتقذفون عليه الحجـارة، فأيُّكم أصابه انتـصر، وأيُّكـم أخطأه أعـاد الكَرّة مرة أخـرى، فتعـاودون المحاولات، وتُعـادون الهزيمة، حتى تُصيبون الهدف، وكأنّ هذا النهر فتح في قلوبكم الشـغف تجاه غايـاتٍ جديدة، كما ترك ماءه العذب لطيور السـماء، كي تطير نحو آفاق بعيدة.

❋❋❋❋

وقبـل أن يصل المفتـاح إلى نهايته، تقودُك الأقـدام خلف أبيك وهو يحمـل الماء عـلى كتفيه، نحو قبور مُشـقّقة، تكاد تظهـر من الأرض، لا أبوابَ لها، ولا نوافذ، مهجورة بلا حرّاس عليها، وسـاكنة بلا سُـكّان فيها، وباديـة كوطن ضيق لا صوت فيه إلا صوت الطيـور المُرتحلة، والمُقيمة، والأقدام الصّاعدة، والهابطة، وكوادٍ غير ذي زرع، قلّما تنبت فيه النباتات إلّا الشـائكةُ منها، والصابرة عـلى فقد الماء، وكأرض للوحـوش الزاحفة، والرّاكضة أحياناً كثيرة.

وبينـما تقتربان تقترب القبـور، فإذا ألقيتما التحيـة خرجت الأرواح من سـجنها؛ لتردها عليكـم، وتفاخر صاحب القبر الـذي أتيتما إليه بين كل الأجيـال الحاضرة في عالمه؛ لأنه المقصود، وتبدأ عاصفة من السـكون

تضرب المكان، فيضطرب قلبك، ويشــحب وجهك، ويرتخي جسدك، حتى يخرج أبوك بعضاً من الورود؛ لغرسها، فيعطيك بعضاً منها، فتثقب الأرض، وتدفن الوردة من جذرها، وتسقِها بالماء، وتُخفي في نفسك سؤالاً، تكشف عنه حال كِبَرك، وتجلسُ مُنكسراً كأبيك، وكم كان فظّاً ذلك الشبه!

فــيروي لك عن محنة الفقد، وأنها تــأتي قبل أن يحتاطَ المرءُ أو ينتبه، كســماءٍ كانت صافيــةً حتى جنّ الليل، فتجمّعــت الغيوم فيها، وضربت الأرض بوابلٍ من المطر.

كذلــك يفعل الفقد، يُنادي عــلى كل الأحزان؛ لتتجمّع، ويضرب العين بقطراتٍ من الدّمع، وشجرة الحنين في القلب حتى تنكسِر.

الفقد الذي عند إتيانِهِ يحــلّ الخريف ضيفاً ثقيلاً أمام دارك، ويُصبحُ صدرُك ضيّقاً حرَجاً كأنّما يصّعدُ في السّــماء، وتســتيقظُ الأســئلةَ من نّومٍ عميقٍ، إلى أيّ مكانٍ سوف تمضي؟

وأيُّ الأماكن ستحُثّ إليها الخُطى؟

ومن تُرى سيغيبُ سهواً؟

ومن تُرى سوف يُحصّنُ قلبك ضدّ هذا الذّبُول؟

ومن سيحتضنك إذا صرتَ مُثقلاً بالكوابيسِ؟

ومن سيُدْفِئُكَ إذا ملأك البرد؟

ومن يرفعُ عنكَ رِدَاء المِحْنة؟

ومن يُصلّي معك إذا زارتك الوَحشة؟

ومن يشعُرُ بسُقُوطك الخفيف تماماً كأوراقِ الشّجر؟

ويُخبرك أنّ ضَوءَ المِحْنة شـاحب، والمشـاعرُ تتقافـزُ فيها من حولك كقطيعٍ ثائر، والذكريات تحتشـدُ واحدةَ واحدة كالمياه خلف السدّ، حتّى يتهادى بك النّوم، ويُسلّمُك من عالمٍ إلى آخر.

ويبقى الفقدُ هو الشّـعورُ الذي يهبُّ من الّـروح، ويندفعُ معهُ بُكاء العـين المرير دون أي مُقاومـة تُذْكر، ويَرِثُهُ الناس مـن بعضهم البعض، من وراء كل نافذة وباب، من نوافذ السـيارات، على أبواب القطارات، في المطارات، في نهاية كل مُحادثة وأخرى، ثمّ إلى هنا، ويضرب الأرض بكفّيه ويقول: إلى هنا، نودعهم الوداع الأخير؛ الأخير.

المشهدُ الثالث
فـاكهـة الصبـا

الأيــامُ لا تبقى حيث كانت، فالليل إذا جــنّ يُدبر، والصبح إذا تنفّس يموت، ودائرة الرّحيل تدور، وأنت تُودّع الأيام كصَفحاتِ الكُتب، ويســهرُ قلبك مُشتعلاً كمصباح، وتبقى عيناك مُسلّطة نحو الأمام.

ولا تلتفــتُ لطفولتك الوســطى التي تموتُ تدريجيــاً، من صخبٍ في البيت وخارجه، ومن ثرثرة وعصيان، ونفخ للنّار ولمســها، وتفتيتٍ للثلج ومَضْغِه، وأســئلة كثيرة تطرحها، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وبحث في تُراث الكون حتى تصل إلى ميراث الأولين، وتحقيق في المسائل التي تعرضها على عقلك، وعلى غيرك حتى تحصل على الأدلة، فتشبع غريزة المعرفة بالشيء الذي تقصده؛ الشيء الذي يفتح شهية المعرفة بأشياء أخرى.

ولا ينطفئُ سِراجُها أيضاً، بل يبقى مُشتعلاً؛ لتعود إلى عتبتها أنّى شئت، ولتُقدّم نفسك للأوراق التي ملأتها بالخير، وليتهادى أمامك الطريق الذي تسير عليه عندما يأخذك الحنين إلى هواء الماضي، فتعود إلى ما قدّمت في عمرك الصغير، وكُلّما دنوت قلّ الضوء الصادر من نقطة البداية، كأنّ هذا النور يقلُّ بمقدار جهلك بالأشياء، ويزداد بمقدار علمك بها، حتى تصل إلى بدايتــك، فتنظر مدّ بصرك إلى طريق عظيم ينتظر منك أن تُكمله، لتُدركَ أنك لم تكن طفلاً وإنما كنت نجمة تحســبها في السماء صغيرة، أصغر من مصابيح الأرض، وأقــلّ إضاءة منها، لكنك إن بحثت عن حقيقتها أدركت العكس، كذلك أنت، حسبت أنك صغير جداً، والآن رأيت بعينيك أنك

صنعت ضوءاً أبيضَ بلا شمس أو سُحُب؛ ضوءٌ من صُنعك أنتَ.

❋❋❋❋

النــوم يعرف كيف يُلقي بسُــلطانه عليك، ويعــرف كيف يضعك في غيبوبة، ويغمسك في آبار الأحلام، فلا تعرفُ السبيل إلى اليقظة، ولا تعرف تأويل تلك الأحلام أيضاً.

وتســاعد على ذلك القرية التي تســكن فيهــا؛ لجوّها الهــادئ ليلاً، وسُــكُونها المألوف، وسُــكّانها الذين ينامون مُبكّراً، ونسيمها النقيّ فجراً، وجمال حقولها عند شروق الشّمس.

هادئــةٌ بــلا قُضْبان، بلا أرصفة، بلا إشــارات، بلا ضوضــاء، بلا رائحة عوادم، بلا زِحام مروريّ، وبلا كمائنَ للشُّرطة.

كما أنّها تعرف كيف تكشف ستائر النوم، وتمحيه عن جسدك، فتصيح الدّيكــة قبيل الفجر، وتُغــرد الطيور، وتَنقُر العصافــير على النوافذ قبيل الشروق، وفي البكور يستيقظ النســوة لحلب الأبقار، ويصعدنَ بالحليب الصافي إلى مائدة الإفطار، ويجلســن أمام أفــران من الطين لإعداد الخبز، ويحملن الماء من العين، ويذهبن إلى الطاحونة لطحن القمح والشعير.

بينــما يركب الرجــال الخيل أو الحمــير، ومن خلفهم تخــور الأبقار، ويصنع ثغــاء الأغنام والماعز مع خوار البقر لحنــاً يجعل الجنين في بطن أمه يستيقظ، ويستمرون بعزف هذا اللحن طوال طريقهم للحقل، وأثناء تحريك الأبقار للساقية.

فتنهــض من نومك، وتشرب من الحليب الصافي، ثم تذهب مع أبيك؛ لتنعم بالشمس والهواء، وتجاور المخلوقات الأخرى من حيوانات، وطيور، ونباتــات، دون أن تفصل بينكــم الحواجز، وبعيداً عــن صخب البيوت، تســترخي هادئاً بالحقول، وتنظر إلى والدك، وهو يحمل فأســه، ويرســم خطوط الأرض، ويفرز جســده العرق جــراء الجهد المبذول، حتى يتعب، ويجيء إلى جوارك تحت ظل الشجرة التي تركك عندها، ويطلب منك أن تحمل القلم كما يحمل الفأس، وتُسطّر حروفاً من نور كما يرسم خطوط الأرض، وتروي علمك بعلم جديد حتى ينضج المحصول، وتحصل على ثمار تفرح لها عيناك، ويرضى بها قلبك.

****

الشغف الذي اشتعل في عينك منذ أول يوم في بيت شيخك، لم يترك له أدنى شــك من أنك سَتَعِي القرآن في صدرك، وأن طريقك لن يكون معوّجاً مهما قابلت من منحدرات وعوائق، فيسقط الأطفال من حولك، ويغيبون عن الحضور كما تسقط الثمار الفاسدة من الشجرة.

وكلــما مرت الأيام عليهم، وكثُرَ غيابهــم، لا تعود تربة قلوبهم صالحة لزراعة العقيدة وحفظ كلام الله كما لا تصلح تلك الثمار للطعام الآدميّ.

وبينما يتســاقطون من حولك تتشــبّث بالغصــون، وتنتظر بصبرٍ أن تجنــي الثمار، وترفع رؤوس أبَوَيك وأهلك؛ لأنّهم خفضوها وهم يزرعون

بذورك، وينتظرون على عجلٍ أن تُبشّرهم بأن جهدهم لم يذهب سُدى.

وتُسابق الريح إلى شيخك، لا يمنعك وحل الشتاء، ولا حرّ الصيف، ولا رعد الخريف، ولا هدوء الربيع، ولا غياب رفقائك، ولا حضور أُناس جدد، ولا شهوة اللعب، ولا الفراش الدافئ، ولا تُريد الغياب ولو كنت قادماً من عصور التعب، وتحضر وإن كان حفظك لا يسُرّ؛ لأنك رأيت كم أن الغياب يضرّ!

وعندما تنتهي من نهاية سورة أو جزء، يحلّ العيد على المنزل، ويُكبّر أبوك وتصنع أمك الحلوى التي تحبها، فتسمع التكبير، وتأكل الحلوى، وتنطلق إلى شيخك كي لا يتأخر العيد القادم.

حتى تبلغ مشارف النهاية، وتمرّ على حلمك، وتُخيّم بين أوراقه، وتصنع لكل فصل خيمة، حتى إذا اكتملت النعمة، وتم الفضل، باركك شيخك، وقدّم لك ما قدمّت على هيئة كلمات فيقول: لقد طلبت القرآن وهو من طلبك، وحفظته وهو الذي حفظك، وسعيت إليه فسعى إليك، وخيّمت بقلبك بين أوراقه فقبل قلبك وعاء يُفرغ فيه الإيمان متى كان الوصال، ويتسلّل إليه الجفاء متى طال البعد.

****

لا أدري كيف أصف شعورك وأنت عائد إلى البيت حيث ينتظر والداك اليتيمان، وهما يقتسمان البشاشة والقلق، ولا أعرف كيف قلت

لهــم الخبر وقلبك يقفز في الخارج، ولا أســتطيع وصف نظرة الفخر التي تقفــز من وجههما وهُما يُحــاولان الحفاظ على وضعيّتهــما الهادئة، ولا دمعة الفرح من عين أمك وهي تحتضنك فتهدأ نيرانك المُرهفة، ولا تخلّي أبــوكَ عن هدوئه وهو ينشر الخبر في القريــة مُندفعاً كأنه طفل يخطفه الفــرح من وعيه، ويُقيم الولائم على شرف النعمة التي اختصّت بيته عن بيوت كثيرة.

وعندما تهدأ الأجواء يبقى كفّه على صدرك، وظهرك مسنود إلى صدره، فيهمــس في أذنك ويقول: آهٍ يا بُني، كلما كسر نومي القلق، مشــيتُ إلى غرفتك، وجلست أتحسّــس وجهك، وأتفقّد ملامحك، وسكون التفكير في رأسك، وأدعو الله أن تفعل ما لم أستطع عليه صبراً، واليوم أثلجت صدري بأول قدم وضعتها على طريق الهُدى.

أؤمــن أنك كلما كنت للقرآن أهلاً، لن تضع قدمك على طريق إلا كان ســهلاً، ذلُولا لأقدامك، ذليلاً أمام دعائك، ونهايته تُقرُّ عينك، فالحمد لله الذي كتب في قدري أن أرى يوماً كهذا!

تُنازلك السعادة فتقف بينك وبين النوم، ثم تَتنازل بعد أن تترك رأسك صافية، فيُتوّج النعاس نصره بســاعات نوم إضافية تحرســك فيها ملائكة اللــه، وينسى الليل حلول النهــار على الشرفة، ويبقى نائمــاً كأن النعاس خطفه بعد أن وجد ســعادته هو الآخر، فنام مطمئناً من غير قلق لا من

ضوء النهار، ولا من حرّ الشمس، وظل أنيساً لك حتى فتحت جفونك فغادر.

❋❋❋❋

تبدأ في حزم أمتعتك للتّرحال مع رفقائك خلف شـيخك، لتتعلّم مقام الضراعة والرجاء، والتوحيد الخالص، وتعرف رحمة الله التي لا تُحد بحد، وتُسـقى بالموعظـة البليغة، والنصائـح الغالية من شـيخك، بما أوتِيَ من حكمـة وفِطنة، وعلم وهدى، وصلاح وتقوى؛ مـا يُقوّم أخلاقك، ويشرح صدرك، ويرشـدك إلى الطريق المستقيم، ويورِثك علمه من أجل أن تقوم بمـا كان يقوم به امتداداً له، مع علمه أن الله سـبحانه وتعالى هو الذي يتولى شئون عباده، وأنه إن هداك الله فمن يُضلك؟ وإن أضلّك الله فمن يهديك؟

فتجلس معهـم في حلقة، وتأخذ الكتاب بقـوة، وتفهم قدر ما تفهم من تلقاء نفسـك، ثم تسـتعين بكتب التفسـير؛ لتصـل إلى بلاغة المعنى وعمقه، فتفتح السـماء أبوابها أمام وجهك، وتصعد بقلبك إلى الله درجة درجـة، ومع كل درجة تقف على باب، تطرق عليه وأنت تهتف باسـمه الأعظـم، حتى يتلاشى اللون المنطفئ، ويسـتيقظ القلب المتعب، ويتنوّر العقل بالمعرفة، فتتعبّد إليه بالصبر كالقابض على الجمر، وترفع له يديك وتبسـطها بالدعاء، وتنحني لجلالته في الركوع، وتضع جبهتك على الأرض في السجود، تمجيداً له وتعظيماً وتقديساً.

وعند غروب الشـمس كل يوم تبدو كالحصاة حين تبتلُّ بالماء؛ تصبح لامعة، كذلك يفعل الإيمان بقلبك، فتكبر تحت كنف العلم، وحضن الأهل، ونظر الشـيخ، نقيةٌ سريرتك، محمودة سـيرتك، تـسرّ الناظرين رؤيتك، وتجُـول الأرض بمـا علمت، فتبعث الأمل لليائسـين، والصـبر للفاقدين، وتـزرع في الأرض بذور أحلامك التي تتراكم السـحب في السـماء لأجلها، فتمطر مطراً خالياً من الشوائب، كالماء غير الآسن، تُصبح من بعده الأرض مخضرّة، وتصفو السـماء كأيام الصيف، وينبهر بـك أُناس يحبون الخير، ويحسدك أناس على ما أنعم الله به عليك، ولأنك ذو أصل ثابت كشجرة طيبة، لا تهتزّ من نظرات حسود سوف تمضي.

****

تجلس في جلسة من جلسات الذكر، تستمع إلى تراتيل الرجاء، وعذوبة المناجـاة، وصدق الأمـاني، وتصديق اللسـان، وبلاغة الخطـاب، وبراءة القلـوب، ونضارة الوجوه، والبـكاء والتباكي، والتوبة والإنابة، والتسـليم والخضـوع، وذكر خير خلق الله محمد -صلّ الله عليه وسـلم- والتأمل في صمت، ومقت النفس، في جلسـة تحفّها الملائكة، ويذكرهم الله فيمن عنده في الملأ الأعلى.

ثم يخلو كل امرئ بنفسـه، فتخلو بنفسـك وتصعد إلى سطح قريب للسـماء، فيصفع وجهك هواء الليل، وتسـمع لحن حفيف الشجر، وترى

ضــوء القمر النافذ، وتقطف النجوم واحدة تلو الأخرى، وتفرش ســجادة سميكة، وتضع على حافتها وسادة طرية، وتُعدّ لنفسك براد شاي، وتجيء بزجاجة كبيرة، ثم تطرح جســدك على الســجادة، ورأسك على الوسادة، وترتشف الشاي، والريح تعبث بشعرك، وتجري على ثيابك حرة، والغيوم تشــف على أبراج الحــمام، والطمأنينة تجد قلبك مســكناً، حتى يجيء الفجر، ويقودك الحنين إلى أنســه، فتناجي اللــه، وتدعوه بما يُمليه عليك قلبك، وبما حفظت وســمعت، فتقول: أن يــا الله، أنا هنا وحدي، روحي كالحضن، وصــدري كالغصون، وقلبي كجناح طائــر يرتعش، أصلي إليك صــلاة المُتعبين، ورائحةُ الأطفال تفوح مني، يا ربّ الوحيدين، والمُوحّدين، يــا من تبصر مــاء العيون، والــتراب المبتلّ بالأنين، لم يبق أحــد هنا، وأنا المتدثر بعفوك في الليالي النديّة، والمهاجر بحنيني إلى أنسك، والمستمسك بمــا أوحيَ إليّ من فضلك، والباحث عن طريق الخلود في الجنة، لا تجعل قلبي يقع في فتنة، أو يقف على باطل، أو يسقط في فخ، واجعل الآتي من السماء برداً وسلاماً على قلبي، وعلى قلوب المسلمين.

****

فاكهة الصبا لهــا فصل من فصول حياتك، تُودّعك بعد أن ينتهي هذا الفصل، ويبقى ما أوْدَعَت فيك حاضراً معك إلى الأبد.

أيامك التي كنت تبدأها بتفقد لون الندى والحجارة، والشفق وغسق

الدجى، وتراكم السحب، والبرق الخاطف، وسقوط الشهب، وماء المطر، وما ينبت في الشجر من غصون، وما ينمو في الأرض من زرع أخضر، وما يخرج من فمك من بخار أبيض، وما ترى في الخلق من عيون مختلفة، وشعر مختلف.

أيامك التي لا تمر من غير أن ترى وجه السيدة أمك، وتسمع صوتها، فهي أول فرد يستيقظ في العائلة، وآخر من ينام، وأكثر من يصنع طعاماً، وأقلّ من يأكل، وهي الأكثر حزناً، والأقل شكوى..

وهي المائلة بحزن، والأكثر بهجة، وجنة الدنيا، ولا تُعدّ نفسها كذلك، وحديقة البيت، ولم تحلم بحديقة، والعاشقة التي لا تنتظر رسالة، والمحبوبة التي تنتظر القرب، والمنتظرة التي لا يُغيرها الزمن، والصابرة التي لا تهدمها المحن، والواقفة أبداً مهما جارت عليها الحياة، أو جار عليها من يُمثلون لها الحياة.

السيدة التي لا يضيق صدرها، ولا ينفذ نصحها، ولا تمل من عناق الكل، ولا تسأم من دعاء الخير، ولا تيأس من روح الله، تقف تحت العواصف كخيمة، وتُخبئك تحت الملابس كوشم، وتفتح حضنها كالنهر، ويبقى دفئها للأبد!

تجلس على سجادة الصلاة بضوئها الممدود، ووضوئها المعهود، وسبحتها المُهداة، ودمعتها المُلقاة على عباءتها، وبعبادتها في الليل، تصنع

سحراً في الأرض، تنظر إليه الملائكة كما ينظر أهل الأرض للنجوم.

❋❋❋❋

أيــام البحث عن إجابات مفقودة لم يكثر القول فيها، ولم يقل التفكير أيضــاً، والســعي خلف ما تراه مرآة لفطرتك، وضوءاً لســبيلك، ودليلاً إن تشــابه القول عليك، ولو لم تجــد مصباحاً على النوافــذ، أو أعمدة إنارة في الطريــق.. تمشي لتجد ضالتك، فتُريح دابتك، وتُســكت عقلك، وتتأمل كدرويــش، وفي قلبك إيمان بأن نور اللــه لا يَحجبه شيء، فهو الذي جعل الشــمس سراجاً، والقمر نوراً وقدّره منازل، وزيّن السماء الدنيا بمصابيح؛ لتكون رجوماً للشــياطين، وفــرش الأرض ومهّدها وبثّ فيها من كل دابة، وسخّرها لكل الكائنات، ووصف جلالته بأنه نورٌ على نور، فلا بشرٌ يمشي، ولا طائر يطير بجناحيه، ولا حشرة تدخل إلى مسكنها إلا بنوره وهداه.

وتُخرجُ السماءُ برُوحِها، وبُروجها، وزينتها، وكواكبها، وشُهُبها، ورعْدها، وبَرقها، ومَطَرها، ولَوْنها، وسُــحُبها، وغُيومها، الضّيق من صدرك، وتأسرك الأشــجار بجمالها، وحَجمها، وطُولها، وأوراقها، وثِمارها، والطّيور الصغيرة التي تُحلّق حُرّة بين أسراب، حتّى تُســبّح تلقائياً لله الصانع الذي أحسنَ كُلّ شيء خَلَقَه.

ولعلك تُشــبه صيادي البحر الذين يرمون بشباكهم على صفحة الماء، حتى ينتهون من رَميها عن آخرها، ويعودون للمّها وجمع حصادهم منها،

فيشاهدون الرزق الذي طلبوه وهو يخرج من الماء، من أسماك لها أحجام وألوان مختلفة، ويشـاهدون الرزق الذي طلبهم من حصى لامعة ولآلئ، فيُحـرّرون رزقهـم من الشـباك، ويضعونه في صناديق خشـبية مملوءة بالثلـج، ثم يعودون إلى البر؛ لكسـب ثمار سـعيهم، وتعبهم في الحصول عليـه، فيتجمع الناس، ويشـترون منهم حتى آخر سـمكة، فيرجعون إلى أهليهم فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالأيام القادمة.

تُشـبه صيّادي البحر وأنت ترمي بشباكك الخفية التي لا يراها غيرك عـلى صفحة العمر، والسـنين التي تمضي، والأشـخاص الذين يعبرون من خلالك كأنك شارع أو ممر أو خندق، حتى تنتهي شباكك، وتعود إلى أول العمر، إلى أول مكان ألقيت منه الشـباك، وتقف؛ لتشاهد الذي جمعته من رزق طلبته ومشيت إليه، ورزق طلبك دون حول منك ولا قوة.

حتى تقف عند آخر الشـباك، وتُلقي نظرة على ما ودّعت من فصول جفّ فيها صوتـك، وتعبت فيها من الصّحو والانتظار، ومن الركض تحت وهج الشـمس وضوء النهار، فتُلوّح للسـنوات التي رحلـت ولن تعود، وتُصوِّب وجهك نحو العواصف القادمـة، والأمواج التي تفرض هيمنتها، وتعرض قوتها أمامك، وتقف لتفكر كيف ستنجو منها؟

وتغيب آخر شمس، ويستعجلُ آخر ليلٍ الرحيل، فتُودّع طفولتك وتنام وتحت رأسك حلم مخيف، وينمو في رأسك سؤال واحد: إن كانت أحلامي مخيفة على الوسادة، فكيف تكون أحلامي إن كان فراشي الرصيف؟

المشهدُ الرابع

أرضُ المُراهقة

تشــبّث!

❋❋❋❋

خرجــت من جوف الطفولة بعد أن قذفت ماءك، وتغير جِلدك، وزاد نموّك، وتغيّر صوتك، ونبت بوجهك ضيف خفيف، ومشيت وحدك كعابر سبيل يحمل مَتاعه على ظهره، وعمره على كتفه، فوقفت على ظهر أرض حَالكــة من أثر العواصف، وشــائكة من أثر الجفاف، الورد فيها شــوك، وصدى الصوت فيها كمن يُنادي في بَوق، والنباتات على ظهرها سامة، وفي جوفها الألغام تنتظر خطأً واحداً من قدمك؛ لتنفجر.

أرض المراهقــة التي تقف عليها وحــدك هي أرض معركة كبرى، أنت مُجبر على النجاة منها بأيّ وســيلة كانــت، فلا خيار أمامك غير النجاة إلا النجــاة، مهما فــات على وجهك من غبار، وعلى قدمك من شــوك، وعلى قلبك من حزن، وعلى عقلك من تفكير، وعلى جســدك من ســهر، وعلى فطرتك من شوائب؛ لأنّك مرغم على العبور منها كما عبر الذين من قبلك، وعلى الصمود في فصلها الوحيد، حيث الخريف هنا يســلمك إلى خريف، والظمأ الذي يجرّك إلى البئر، تجرّك مياه البئر إلى ظمأ أشــد منه قوة، وكل ما كان في الوراء يبقى في الوراء، وتبقى وحدك بين أمواجِ أرض نافرة كأنك ولدت من جديد!

تــدور حول نفســك بحمل ثقيل تجاه وجهة مجهولــة، وتلتفت يميناً

ويســاراً خوفاً على قلبك من اللصوص، وعلى عمرك من الألغام المزروعة، فتُحــاول التعافي من الظمأ، والوقوف على الشــوك، والبحث عن القوافل التــي تعبر، لعلك تجد قافلة تحمل همّ قلبك على راحلة، وتحملك بدونه على راحلة أخرى، وتخبرهم آنذاك: أنه لا ذنب لي إذا تأخرت راحلة قلبي عن الجماعة، فكما أن لكُلّ مسافر مَتَاع؛ قلبي مَتَاعي!

ولحظــةَ أن تجد ما تُحمــل عليه، تَحمل همّ قلبك عــلى يديك كأنه جمرة، وتضعــه على راحلة، وتركب على راحلة أخــرى مُتقدّماً أوجاعك، ومُتخلياً خلفك عن شــجر يتكسّر من رياح الخريــف، وثلج يتفكّك على سرير الروح من الوحشــة، وأرض تتشقق وتبتلع الأتربة من الظمأ، وأفق يحجبــه الليل، وقلب أنهكه الترقب، يرتجف من كوابيس الشــهوة وهي تحــك الرأس بحجارة، وتــدُكّ كل الحصون التي تمنعهــا من الوصول إلى المُبتغى، وتتجاذب مع الضلال ضد الهدى، وتتنافر مع الفطرة الســليمة، وتُــودّع ريــاح الذكرى وهي تهبُّ على ثيابك، وتخلو مــن التوتر والقلق، حتى تعتدل العاطفة وتتكيّف مع المحيطين بك.

وتبقى مُتمسكاً بحبل اللجوء إلى الله، فتنطفئ نار الشهوة عند لمسك الماء، وشروعك في الوضوء، أو أن تخرج إلى الهواء، وتُفكّر بهدوء في الطيور المَرِحــة، وفيما عند الله من خير وأبقى، أو تتذكّر الشــجن إلى غفوة على العشــب الرطب الذي يتســاقط عليه الندى؛ الندى الذي يتساقط عليك ظناً منه بأنّك عشب!

فيُلقي عليــك الله النُّعاس أمنةً منه من مراهقة حملت خوفها إليك، وأصابتك على حين فجأة، ويُنزّل من الســحاب ماء طهوراً؛ ليُطهرّك به من الباطن، ويُنقّيك كالثوب الأبيض من الدّنس، ويُذهب عنك رِجْز الشيطان، ويربــط على قلبك بالثبات، ويروي الأرض، فيَنبت فيها العشــب؛ ليكون برداً وسلاماً على قدمك.

****

متعبٌ أنتَ أيها الشاحب، ثقيلة خطواتك كأنها على موعد مع إحدى الخســائر، ومُتشقّقة شــفاهك كأنها لم تُقبل شــفاهاً أخرى من قبل، بل لم تُقبّل كأســاً منــذ زمن، وجافّة يداك كالحصى، كأنهــا لم تتذوق بعد أن تبتــلّ بماء الــورد كأيدي الأســياد، أو تبتلّ بالدم كأيــدي المحاربين، وبين هذي البيوت يرتخي جســدك كالورد حين يفقد الماء، وتذبل زهرتك حين تبقــى على الأرض وتدوس عليها الأقدام، وعقدك الثاني لم يكتمل، وعقلك المحمــول لم ينضج، وقلبك المقصود لم يرتو بعد؛ لأنّ دروبك قاحلة، وكأنّ هذا القلــب الصغير لم يتحمل هذا النضج المبكــر، ويداك الممدودتان لم تتحمل أن تُترك في منتصف الطريق.

متعــبٌ أنت أيها البائس، ويابِس كما الحطــب، وبارد كمولود يتفقّد وجوه من حوله وهــم يحاولون إضحاكه، ويتحوّلــون إلى مُهرّجين لأجل بســمة من سيادته لكنّه لا يفعل، وشــارد في ما يحمل الليل من راقصين

على تعبك كأنّك مخمور، ومن أيدٍ تمتد إلى جسدك أشدّ بهاء من الغصون النظيفة، بجسـد فاتنٍ في الثياب الخفيفة، تدعوك إليها لتكتشف نضجك، ثم تعبر من قميصك وتلتحم معك كما يلتحم بك الماء.

تائهٌ أنت أيها المتعب، وهواك يُحرّك تلك السواكن، وهُداك يمنع يأس المسـاكن، وسِواك يغرق في هَواجِس الماء، وهجرتك خوفاً من تجاوز الحدّ أو أن يصـل الماء إلى الماء تُنجيـك، حتى تصل إلى أرض أخرى لا بلل فيها، فتُلـوّح للنظيفة في الثيـاب الخفيفة، وتُلوّح للغريب عـلى صفحة الماء، الغريب الذي ضاع عن الدرب؛ الغريب الذي كان أنت!

تتقدّم كلّ ليلة صَوْب ما تَشـتهي، دون اكتراث منك ولا تساؤل كيف انجرفت إلى هذه الوحشة؟!

إلى تلك الطُرق المُفضية لظلام تخشاه ومشاعر باردة!

تتقدّم مُنكمشـاً كريش طير، ومتدثراً مـن ضميرك بنقاب أُنثى، حتى إذا نجحت في الهرب، وتَسلّل الماء إليك صِرت غريقاً أخفّ من القشّ على الماء، وتبقى عينـاك مفتوحتان كالأموات، والضمير يُخاطبك، إلى أيّ ظلام ستهرب مجدداً؟

وكـما يصمت الموتى تصمت، فيجيب الضمير عن نفسـه قائلاً: انتهى الهروب إلى الظلام.

ولأنّ هنـاك أمـواتٌ كُثر على قيد الحياة؛ لأنهم بـلا ضمير، تبقى حياً

قدر ما كان ضميرك كذلك؛ لأنه هو السّــوط الذي يجلد الذات، كما تجلد الطبيعة أشــجارها كل يوم، فتأنّ الأغصان وهــي تنكسر، والأوراق وهي تتســاقط، وهم لا يعلمون أنّ بهذا الأنين، وبهذا التساقط، تحمي الأشجار ذاتها، كما لا تعلم أنت أن خســوف الضمير يجعل الإنســان يتناول لحم الإنسان بالشوكة والسكين.

وتمــرّ أفــواج العصافير المهاجرة، وتعــود إلى وَكْرِهــا، والتعب متعلق بثيابــك كتعلق الماء بالثوب، والحنين متشــبث بمطلبه الوحيد، عُد بنا إلى الماضي وقرر، إلى أي مكان ستنحاز يا سيدي؟

****

تلك الأشــياء الدّخيلة التي دخلت من نافذة العمر، وتســلّلت قربك، وأوغلت حتى وصلت لنبعك، فاستســلمت لها وســلّمت نفسك دون أي مقاومــة تُذكر، وتبعت تحريضها كأنك آلة إلكترونية تفعل ما تُؤمر، وكأنّ نفسك القديمة أصبحت عدواً، وكأنها أزاحت لك حلماً، أو حازت لك على الخســائر، أو جلبت لك الأحــزان، أو جلدت ظهرك بســوط، أو جرحت قدمك بشــوك، أو وضعت أمام وجهك الحواجــز، أو ضعفت أمام اللهو، أو كسرت لك غصناً، أو قطفت لك وردة، أو فرشــت لك عشــب الوهم، أو قادتــك إلى الجهل، أو خالفــت الفطرة، أو ألِفَــتِ الفتنة، أو خالطت الظلام، أو حضنــت الوحدة، أو انتظرت القوافــل، أو حملت الأثقال، أو

قبلــت الأوزار، أو نامت على كابوس، أو نَمَت بدون ضوء، أو تعرّضت إلى الأسر، أو قَبِلت الشُــحّ، أو قَلَبت العطاء، أو أخذها الغرور، أو تخلّت عن الجهــاد، أو تركت الأحبة، أو منعت الخير، أو جحدت النعمة، أو خدعت أحداً بكلمة، أو شــهدت على زور، أو حســدت ما في يد غيرها، أو كسبت كسباً مجهول المصدر، أو حسبت حُســباناً للمستقبل، وكأنّ حياتك معها لم تكن حياة!

لم تكن حياتك القديمة إلا نبعَ براءة، وربيعَ حُسن وبهجة، ونقاء طهر وصفــاء، تنقلب فيهــا إلى أهلك مسروراً، وتُلقّى نــضرة وسروراً، بعد كل مسرًى جميل، وترجح فيها كفة الســعادة على الحزن، وبســاتين العبادة على زفّة البؤس، وماء الســكينة على اللعب واللهو، ودمعات الإنابة على نظرات السّــهو، ومِرفق اللين على قبضة القسوة، وبسط اليد على قبضها، وتمنع ترائب الصدر بَرد الأسى، ومُحيط التأمل شــاطئ الصمت، وسحابة تَحمل المطر سقف الكآبة.

أمــا تلك الحياة التــي تعمُّ صفوفها الفوضى، وسراج الشــهوة التي لا تنطفئ، وأصفاد الأسر التي لا تســتطيع التحرّر منها، وإن استطعت يبقى أثرهــا على يديك، وأحقاد النفس التي تــأكل أخضرك، وفراغ الفكر الذي يترك الرواســب أســفل رأســك حتى تمتلئ به، فتتســاقط الأفكار التي لا قيمة لها على الأرض، والعواصف التي تهبّ تعميك عن الحقيقة، وتكسر

عصاك كي لا تُراجع ذاتك، وأشــجار الحنين التي يُغريك حفيفها، والأمواج التي تتدافع كي تغرق بين مدّها وجزرها.

تلــك الحياة التي قادتك نحو الجُــرُف، ورمتك نحو المنحدر، وجعلتك كالماء الرّاكد الذي لا يجري فينتقل من مكانه، وبطيء الحركة كالسلحفاة، وكثير الغفلة كسُــكّان جهنــم، يعذبون فيها؛ لأنهم كانــوا يملكون قلباً لا يفقهــون بــه، وأعيناً لا يبصرون بها آيــات الله، ويتأملــون بها صُنعه في الكــون، وخلقه الســماوات والأرض في صورة بديعة، وآذان لا يســمعون بها أوامره التي تُوافق الفطرة، ونَواهيه التي تخالفها، وشــبّههم في القرآن بالأنعــام -أي البهائم-؛ لأنها لا تَفقــه ما يُقال لها، ولا تفهم ما تُبصره غير الأشــياء التي تُبقيها على قيد الحيــاة، ولا تعقل بقلوبها الخطأ والصواب، والضــارّ والنافع، فتُميّز بينهما، بل زاد القرآن في تحقير أهل الغفلة، بأنهم أضلُّ من البهائم؛ لأنها تتبع راعيها.. تلك الحياة لم تكن حياتك!!

****

تُخاطب نفســك أخيراً، وتســتيقظ عصاك، وتثور على غفلتك، وتقف غضبان أسِــفَاً تُردّد: بئســما خَلَفْتَ من بعد ما نشأت عليه، رفعت الراية البيضــاء قبل أن أقاوم، وأســدلت الســتائر أمام عيني قبــل أن أتفحّص الطريق، وغطّيت رأسي بالوسادة بعد رؤيتي شعاع الشمس، وكنت هشّاً ضعيفاً لا أقوى على الشــدائد، وكســولاً لا أقدِم على فعل شيء حِيال تلك

الأبواب الموصدة أمام وجهي، وخائفاً وجباناً لا أستطيع أن أمسك درعاً؛ لأحمى صدري، ولا أقوى على لمس جرحي وهزيمة نفسي، ولا زلت أرضع في نهد الأمس رغم أن أنفاسي لم تنتهِ بعد، وبعد علمي أنّ ما نحبه هو أكثر ما نُضحي به، وما نتمسك به هو أكثر ما نتركه، وما نشتهيه هو ما لا ندركه، وما نعيش لأجله هو أكثر ما نموت في سبيله، وأن العيش في سبيل الذات مقبرة.

وبعد أن تنتهي من مُراجعة نفسك، تدفن رأسك أسفل الوسادة؛ كي لا ترى شعرك المتساقط عليها أول النهار، وتكسر مرايا الغرفة، ولا تنظر إلى عدسات الهاتف؛ كي لا ترى الهالات السوداء أسفل عينيك، وتفرش أسنانك ولا تنظر إلى الفرشاة؛ كي لا تعلم عن نزيف أسنانك، وتمشي في الطرقات دون أن تنظر حولك؛ كي لا ترى أحداً يعرفك فيسألك عن حالك، فتقول مضطراً: أنا بخير، وتضحك له كي تثبت قولك، لتكتشف أن شفتيك جافتان كأرض قاحلة!

حينها تكمل سيرك، وتضع كل الدنيا خلف ظهرك، وتنظر للسماء، وعينك بالأرض، ثم تقول: أحدٌ.. أحدٌ.. لم يعلم أحد.

وبعد إيمانك أن في الحياة ما يجعل الحياة مختلفة، تبرأ إلى الله من الخطايا، بعد أن صفع الندم وجهك، وضرب البرد جسدك، وضلّت قدمك الطريق، وسرق الأرق نومك، وأوجعتك الوحدة، ووجدت نفسك وحيداً

في الجماعــة، ورحل الأنس من جوارك، وتقطعت كل الحبال البالية بينك وبين السماء.

ولــو وقعت على وجهك، وانغمســت قدمك في الوحــل، وحلّ عليك الفجــر وأنت تغــرق تحت ماء الدمــوع، ووصل الأمــر إلى الروح، وفتح جروحــاً جديدة، ولــو أتيته بألف ذنب، وجئته بألف حســنة، تعود إليه دائماً، واضعاً أنفك على الأرض، قائلا: أنا لك عبد، وكلنا لك عبد!

ومع قطرات دمعك، تأبى الســماء إلا أن تبــكي معك، فتمطر قطرات تُزهر الأرض، وتجعل الفجر بعد نزولها جميلاً ونقيّاً، والأرواح التي تُحلق فوق السحب، أبيض من بياضها، والهواء الذي يصيب الأرض، يُنبت وديان الروح، وكأنّ بني البشر يتنفسون مع نزول المطر من هواء الجنة.

فتُنصت إلى إيقاع قطراته، وهزيم رعده، وتُخرج رأسك من بين قضبان النافذة؛ كي يزرع النجوم في وجهك، ويُزيل الغبار عن رأســك، فتصفو كما تصفو السماء بعد المطر.

****

بيتك الذي شــهد ذكرياتك من المهد، منــذ أن كنت رضيعاً على كفيّ أمك، وطفلاً على كتفيّ أبيك، وصبياً بين رجولة إخوانك، وشاباً بين طفولة الأحفاد، شــهد عــلى كل ثانية قضيتهــا بين جدرانه، ودمعــة تركتها على أبوابه، وســجدة سجدتها على أرضه، وقرآن قرأته بصوتك، وكلمات كتبتها

بشــعور دافــئ، وأحلام نبتت في قلبك، وعــلى كل زرع زرعه أهلك، وكل حصاد أكلتــم منه وأكل منه البشر والطير والحيــوان، وكان هو البوصلة التــي تُعيدك إلى الطريق الصحيح، وحبل النجــاة الذي تخرج به من أي بئر تقع فيه على حين غفلة، حتى إذا خرجت إلى العالم، وتذوّقت الغُربة، وتصفّحــت خرابك دمعــة فدمعة، وصِرت مُبتلاً بــالألم، وصفعت الرياح وجهك كأنك يتيم بلا مأوى، تفتقد الحديث مع شــخص ما تحبه، يُصغي إليك مهما ثرثرت، ويســهر معك مهما سهرت، حتى وإن ذهب الليل إلى النوم، ومضت الريح من أعالي الشجر، وآنجلى النهار، يبقى معك، فتحكي معه من دون تصنُّع، وتنفض الكآبة عن رأسك دون أن يسأم، وتُرمّم معه بقايا الصداقات.

تجد فيه ما تفتقده في حياتك اليومية، من ملاذ تهرب إليه من الحزن، وحضــن تهرب إليه مــن الأرق، وتحنان يروي فؤادك مــن الغياب، ولين يضرب أشــجار القســوة، وعطف يُنمّي ورود الحب، ما يجعل القلب في نُزهة بأوتار المشاعر، وبهجة بنداءات الأُنس، ولذة بنكهة القرب.

يبحث معك عن حلول لكل مشكلة تعيشها، ويشاركك أبسط الأشياء التافهــة والجديــة، وكلما رأى وجهك عابســاً ذكّرك بأنه هنــا، وإذا وجد الأيــام ضبابية مشى أمامك بالمصابيح، وإذا وجدك تمشي بلا وجهة رســم لــك الخرائط، وإذا أدرك بأنك لا تســتطيع الوصول وحدك، وحّد طريقه

بطريقك وسار معك حتى النهاية، فعبر معك من شارع الوحدة إلى مشاعر الوجدان، ومن شعور الذبول إلى شتاء الفصول وربيعها، ومن أيام جفاف مضــت إلى أيام تجري من تحتها الأنهــار، ومن الكثير من الغربة إلى كثير من الرغبة، ومن خنادق الليل إلى الجسور المعلقة على النهر، ومن حطام الحوادث إلى فضاء فسيح.

تعــود إليه دائماً كلما شــعرت بالغربة في عالم بحجــم عنق الزجاجة، وحفّ بك العابرون في محنة النوم، وقسا عليك القساة في أسواق الحياة، وضعت في فَلَوات المعاصي، فيخترق الأســوار وينتشلك، ويفُكّ العُقَد التي وضعــت عــلى حنجرتك، ويرمِها للهــواء، ويُلامس الماء بكفه ويمســح به جبينك، وتخاطبك عيناه بأن لا تقلق، قد أقبلت من بعيد لأمشي معك في ركام الــورق الذّابل جرّاء الخريف، أتيتُ إليك من أقصى المدائن لا لأكون ضيفاً، وإنما لأكون مُقيماً دائماً ينهل من كرم ضيافتك إلى الأبد.

****

على ضفاف العشرين، تنهض في الأرض مياه صافية قديمة، تُوقظ شجر الأجداد، وتســقي بُذُور الماضي، وتسوق ماءها إلى الأرض الجُرُز التي تكاد تميّــز من الغيظ، فتنطفئ حرائق الجفاف، وتُصبح بعدها الأرض مُخضرّة، وتقوده على سُــبُل الخوف فتنهار به، حتى تتمكّن من فرض السلام على أرضــك، وإجهاض الأشــياء التي حملتها فترة ضَلالــك، ورمي ثمارها تحت

قدمك، وعرض جلدك على أشـعة الشـمس لتهبك ذهبهـا كأنّك ابنٌ من أبنائها، تماماً كما يرث الأبناء ملامح الآباء.

وتسـتيقظ الخيول الجاريات في سـبيل ما ترغب، وتعْدُو حتى تقدح النار من صلابة حوافِرها، وتُثير الغبار من شـدّة سُرعتها، فيتشـكّل معها الضباب والأثر، وتتنحّى المُعيقات جانباً، وينْحَني الخوف، فتركض الخيول على لحن الوصول، كلٌّ له وجهة هو موليها!

فخيـلٌ وجهته العلم، تجوب بهـا الأرض بحثاً عن غذاء عقلك، وبُعداً عن جفاء قلبك، فلا يتمكّن منك الفراغ، ولا تركن إليه، ولا ترهن نفسـك لوهمه؛ كي لا يُبدّل الأماكن، فيضعُ الحمل على صدرك، والهمّ على كتفك، والحنين في رأسـك، حتـى تعمى عن الحقائق، وتبحث عن الأشـياء التي تفتقدهـا تحت أي سـقف، حتى وإن كان هذا السـقف لا يجوز قطف الثـمار من تحته، لكـن كما لا يُفرّق اللصوص، لا تُفـرق إن وُهمت على المنصوص في الدين، فتقطف من تحت أي سقف شئت، حتى إذا تيقّظت لما فَعلت، وضعت يديك على عينيك كي لا ترى الأسقف التي خرّت.

وخيلٌ وجهته الحلم، تنطلق به فجر كل يوم والعشب مُبتلّ، والصخر مدبّب، والماء غطاؤكم مُلقى على الشـجر، يغسل النوم ويدعوك للسهر، والقمر يودّعـك والنجوم، والريح تجرف غيوماً خفيفة في ظهر السـماء، وتجرُّ الصبح بعيداً عن حرائق الليل حتى يتنفس، وكفارسٍ مغوار يمتطي

جــواداً حين تقــرع طبول الحرب، ويضرب الأعداء بســيفه حين يُظهرون أنيابهم، ويتقدّم الصفوف بصدره دون خوف؛ لأنه يعلم أنه في كل الحالات ســينتصر، إن نجا وإن قُتــل، تتقدّم نحو مائدة مُكتظّــة بالحالمين، كلهم يتضوّرون جوعاً، ويتصوّرون أن طبقاً واحداً ســيكفيهم، حتى إذا وُضعت الأطبــاق على المائدة، عرف كل حالمٍ طبقه، ومع لذة الوصول، والشــعور بالجوع، تنسفون الأطباق نسفاً، ثم تنتظرون أطباقاً أخرى تناديكم.

وخيلٌ وجهته الحنين، تهرب به إلى الماضي كلما أردت أن تكون وحيداً، وأنــت تعلم أن من يحبــون الوَحْدة، دارهم دار حــزن، طريقهم طريق مهجور، نظرتهم نظرة عابر، عبورهم عبور خفيف، قلوبهم قلوب مسنة، يهربــون إلى غرفهم كلما طرق الباب، ويطــول صمتهم كلما ثرثر الجمع، يحســبون أن النجــاة في وحدتهم، ولا يعلمون أنهم مســاكين، فلو فَطِنوا لعلموا أنها سكينة حادّة مُعلّقة، مع كل ثانية تطعن القلب وتعود.

ترحل بــه بعيداً عن الموطــن، وتترك ظلال الصحــب، وتبقى وحدك بــلا ظلّ، فتنظر إلى الماضي كأنه ســفينة كلما طغى المــاء، ومطر كلما أتى الجفاف، ورحمة كلما قست الحياة، وحضناً كلما كساك اليأس، وتلبث في الحزن أياماً، تهز فيهنّ الأرض ليلاً في طلب السماء، حتى إذا تنفّس الصبح جاءتك واحة من الأمل، وعرف الناس في وجهك نضرة النعيم.

وخيولٌ أخرى لها وجهة؛ لا فرصة لأن تغفو عليها، ولا أن تعفو.

الحب يُحــبّ الأرض العشــبية، البعيدة عن أشــواك البيت والنخيل خارجه، والقريبة من زهور ناضجة تَنبض مع نبض الأصابع التي تمســكها، والخالية من أسوار القحط التي تحجب رائحة المطر، ومن ضجيج الزحام الذي يُعكّر صفو الهواء، ومن الخوف الذي يُفسد الوئام، والمليئة بالأساور التــي تُضفي جــمال الذهب على لَهَب الحب، والهادئــة كليالي أوّل البرد التــي يعرف فيهــا المتيّم أن يهيم، والأعزب أن يلين، والشــاعر أن يتغزّل، والكاتب أن يرتجل، والقارئ أن يشــفق على نفسه والكلمات تتدفق على رأسه كالفيضان.

والحب شجرة مُعمّرة دائمة الخضرة، مهما تساقط منها من ورقٍ ينمو مجدداً، وتتعلّق رائحته العطرية بالقلب، فتزفره أنفاســك، وتتنفّسه من كلــمات الغير ومشــاعرهم، ومع كل تعامل وتــلاقٍ تتبادلون الحب فيما بينكم، ويبقى الإحســاس الذي يُراودكم يَــروي الذاكرة به، فيعيش معها ما عاشت.

والحبّ هو الخيــل الوحيد الذي تتعلّم رُكُوبه إلى الأبد، وكلما ظننت نفســك فارساً تليق به، سقطت من على ظهره، وعندما تعود لتركب عليه تجد نفسك لم تتعلم ركوبه من الأساس.

والــذي يحملك على الحــب، شيءٌ فطريّ زرعه اللــه في قلبك، والذّي يجعلــك تبحث عنه كأنك تبحث عــن إبرة في قشّ، هو تلك العلاقة التي

جمعت بين أبيك وأمّك، وهو يتغزّل أمامك وأمام إخوتك بوجهها المضيء، وضوئها الممتد، وفضلها المبين، وصبرها المشـــهود له، وصوتها الذي يَحفّ قلبـــه بالأمان، ويملأ البيت بالهمة، ويحكي على مائدة الأسرة عن طعامها، وكـــم أنه زار الكثـــير من الموائد، لأصحـــاب له وأقـــارب، وأكل من أيدي طبّاخين مهرة يعملون لدى المطاعم والفنادق، لكنه لم يشـــبع من رائحة طعام قط، كما تفعل رائحة الطعام الذي تُعِدُّه تلك السيدة!

ويتعمّـــدُ قول هذا أمامكم جميعاً؛ لأنه يعلم قدر التّعب الذي تحس به، فهو الذي يشـــاركها الفراش، ومن يتشـــاركون الفراش هم أكثر الناس إحساساً ببعضهم البعض، فتنسى كل هذا التّعب من كلمات مدح بسيطة تجبر خاطرهـــا، وهي أهل لها، ولا يقولها مجاملـــة ولا عاطفة منه، وإنما لأنها الحقيقة التي لا تخفى على أحد من أفراد البيت!

وبعد أن تُرفع المائدة؛ تجلســـون تحت لحاف واحد، وترتقبون حكاية تُســـلّيكم، وتوجّهـــون عيونكم تجاه أبيكـــم، فهو المتحدّث الـــذي لا يَمَلُّ أحدكم من حديثه، وتشارككم الأم الجلسة وهي أعلم بالذي يقوله منكم؛ لأنها اســـتمعت إلى كل قصصه، وحكاياته، وعاشت معه كل أوقاته سواء كانت معه بجســـدها أم لم تكن، وحينما يبدأ الحديث، في عصرٍ لم يتسلل إليـــه أجهزة الهاتـــف، والتقاطع الاجتماعي، تتفاعلـــون مع حديثه، فتارة تضحكون بشدّة عندما يُخبركم عن حُبّه، وماذا كان يفعل كي يُرسل رسالة

إلى حبيبتــه التي تجلس بجواره الآن، وكــم من الأيام كان عليه أن ينتظر الــرد أو أن يراها، وكيف أنــه تحول إلى مُهرّج لتقــع في غرامه، أو حاول الظهور أمامها كبطل.

وتــارة تنظرون بحــدّة عندما يحكي عن فقده، وعــن فقره ومعاناته، وســهره من الجوع، ونومه من التّعب، ومحاولاته المســتمرة لكي يجلب حبيبته إلى بيته، وتارة تخفضون عيونكم عندما يقول: إنكم كل ما أملك، وما أملك كله لكم، وما أركض في سبيله؛ لأجل أن تشعروا بأنني أبٌ جيد، لم يبخــل عليكم حين فقره، ولم يتخلّ عنكم رغــم ضعفه، ولم ييأس رغم المصاعب، ولم يُعــطِ ظهره رغم أن وجهه مليءٌ بالجروح، ووصل بكم إلى هنا وهو فخور بهذا، ويتمنى أن يصل بكم إلى الأبعد، لتكونوا أشد منه فخراً.

وتنظر إليه وحدك وهو يتحدث، وتتأمل رؤيته التي لا تخضع لحدود، وهمّته التــي لا تقف أمامها العوائق، وإيمانه الــذي لا يهُزُّه الابتلاءات، حتى تتشــابك أيديكم بعضها ببعض، وتتبادلون نظرات الحب، ثم تنتهي السهرة بأحضان، ومسرّة ليس لها حدود، وذهاب إلى الأسرّة، وأسئلة كثيرة تدور ببالك.

هل ســتكون لك أسرة ذات يوم تجلس معهــا على سرير واحد، دون أن يُفســد تلك الجِلســة أيّ شيء، وتحكي لهم عن كل ما قدّمت لحياتك، وتَغمرهم بكل هذا القدر من الحب؟

إلى أن يخطفــك العمر، وتُلهيك الأشــياء الدّخيلــة عليك من هواتف ومواقــع، وتواصل أصله تقاطع، ثم تخطفك الغربة إلى البعيد، بعيداً عن كل هــذا الدفء، فتفتقد ســيّدة كأمك، وتفكّر فيها في برد الشــتاء وهي على السطح، وتسأل نفسك: لماذا تخاف على طيرنا من الشتاء، وعواصف الهواء، وتبحث عن أي طريقة لنجاتهم سالمين، ولا تخاف على نفسها من البرد؟

وكيف تُطعم القطة وصغارهــا الثلاث، ثلاث وجبات في اليوم، مثلهم مثل أهل البيت، وتترك لهم ما يكفيهم تحت بئر السلم؟

وكيف تُحافظ على دفء البيت برائحة الطعام التي تصنعه من وقت الضحى؟

وتفكــر فيها، وهي تُفكــر فيك وأنت تعيش وحدك بعيــداً عنها، ثم تقول لنفسك: أيّ فتاة في عصرك تستطيع أن تواجه إعصاراً كأمك؟!!

❋❋❋❋

المشهدُ الخامس

مزيجٌ من مشاعر

كما أن لكل خيلٍ وِجهة، فلكل قلبٍ قِبلة.

الهواجس تملأ عقول الكثيرين من أبناء جيلك، فكثيرٌ من الشباب يريدون فتاة أحلام، شعرها أصفر، وعيونها من السماء، ووجهها من السحاب، وباقي الجسد يُخالف قوانين الطبيعة، وكثيرٌ من الفتيات يرغبن بفتىً مفتول العضلات، مُفتي ديار الغزل، يهتم بالحذاء أكثر ما يهتم بالرداء، ويفتن صديقاتها قبل أن يفتنها، ولا يتوقفون للحظة ليتفكّروا في سؤال واحد: ما هي الأحلام التي تسكن القلوب؟

فالمظهر الخارجي مطلوب؛ لينجذب الجنسان لكنه يتغيّر، والكلمات مفتاح القلوب لكنها ليست مقياس، ولغة الجسد تُثير الحدس لكن لا يفهمها إلا الدارسون، والذي ينقاد إلى المظاهر بقاؤه مشكوك فيه، ووصاله غريزة نفس عاقبتها لا تُحمد، ووصله جريمة عقابها الندم المؤبد؛ لأنه حتماً سينجلي أمامه مظهرٌ أجمل، ويضعف أمام فتنة أشد، ويلهث وراء الغرائز، فيقطف الثمار الجميلة، ولا يملأ عينيه إلا التراب.

وتقف لتتأمل حسرة الذين أغمضوا عيونهم عن الحقيقة، وانجرفوا خلف طيبتهم، وظنّوا أنهم يسكنون قلوب محبيهم كما أسكنوهم قلوبهم، ثم تفاجئوا بالترك، وظلّت عيونهم مفتوحة، ينظرون بها على قسمهم بالبقاء، واستعجالهم بالرحيل، ويُقارنون بين هذا وذاك، فلا يجدون وجهاً للشبه، ولا نهجاً للعلاقة، ولا وجهة لخُطاهم، وينتظرون رجوعهم من أرض الغياب؛ ليُخبروهم أنها كانت مزحة، أو اختبارٌ على

جمــر الانتظار، أو ليُخبروهم أن الأماكن تبدّلــت؛ كي يتوقف بحثهم عن الأطياف التي يفقدونها كل ليلة، ويقبض الحزن أيديهم الممدودة، وتثبّط الخيانة أقدامهم الرّاكضة، ويُغلق النــوم عيونهم المفتوحة فلا ينتظرون، ولا يفتحون الباب ثانية!

وتنظــر في حال أصحاب الجمال الرّوحــي، الذين يقفون آخر الصف، ويختبئــون عــن الجميع، ويزهــدون عن التصنُّــع، ويتجنّبــون التميُّع، ويتجمّلون في مظاهرهم بأبســط الأشــياء، ويتحمّلون الشــغف الخفيّ، فيُخفون في أنفســهم ما لا يُبدون، ويُقاومون الفتن قدر ما يســتطيعون، ويمشون على الدرب المقابل لدرب شبيههم.

الخليــل الــذي يكتفون به عــن العــالم، ويَحتَفُونَ به كأكــبر إنجاز، ويعترفــون لبعضهم أنــه كان الدرب الأصعب، لكــنّ تعبهم ذهب بعيداً بعد اللقاء، وبعد عودتهم من منفى الوحدة، ونفوا الغربة، وفتحوا دائرة الحــب، وأغلقوها عليهم، وحملوا الحمل معاً، وقســموه بينهم، وركضوا نحو الهدف حتى وصلوا، وسكنت أنفاسهم السريعة مع عناق واحد.

فترغب بامرأة تشق الأنهار في جسدك شقّاً، أنهارٌ من ماء لا تَرويك من الظمأ، وأنهارٌ من حممٍ تتلوّى فيها من الحُمّى، وأنهارٌ من عشــق تذوب فيهــا جرّاء قرب، فلا يفصل بينكم عمر العقود، ولا موت المســافات، ولا جدران الغرف، ولا أصفاد الخوف، وتتمنى لو أنها هنا، فلو كانت لما رأيتَ

السـماء بعيدة، ولقطفتَ لها القمر من النافـذة، ولكان لليل معنى، ولو نمـت على السرير وبك وجـع لَرجَع، فأي وجع يبقى وهي موجودة، وأي برد يضرّك والأحضان حاضرة؟!

❋❋❋❋

تتمنى أن تجد وطناً يُشـبهك، تتفق مواسم شتائه مع مواسم صيفك، ومواسـم صيفه مع مواسـم شـتائك، وتتوافق أوقات ضعفه مع أوقات قوتـك، وأوقات قوته مع أوقات ضعفك، وحرائـق حزنه مع مياه مُزنك، وميـاه مُزنه مع حرائق حُزنك، ولينه حين غضبك عليه، ولينك حين غضبه عليك، ويتدفّـق الحب بينكما كتيّار، كأنّ سـحراً يُصيبكما عند الاقتراب، ولحناً يُثيركما عند النظر، ومحنة تقف عند قدميكما عند القرب.

وتتوافـد على الآبـار كالسـيّارة، وتتأمل في الوجوه التـي نامت على سـطحها، حتى تجد وجهاً مُسـتديراً يُمكنه النوم مـكان القمر، تُطلق له العنان ليشـاركك أمسـيتك العذبة، ويقتحم عُزلتك حين تفيض بأسرارك، ويلتحم معك بمشـاعر أُنسه، ويُوقظ حولك عصافير الحب، ويذُبُّ الحزن عن وجهك، ويَزُود عنك بنسـيمٍ يُدنيك إلى موطـن الأسرار، حيثُ يلتفُّ الحب بينكما، ويُتلف كل الحدود التي وُضعت على الخرائط.

تُفتّـشُ عن وطنٍ لا تحتاج أن لا تراه مرة ثانية، كما تلتقي الجميلات في محطات السفر، بل تحتاج إلى رؤيته بكرة وعشياً، ولا تحتاج لمن يدُلّك

عليه، ولا لمن يأخذ بيدك إليه، ولا لمن يرأف بحالك، ولا لمن يُكثِر سؤاله لك: إلى أين الوجهة؟

إنّك تمضي بقلبك المضطرب، نحو قبلة لم تُضِعْ سبيلها، والحنين يَقطُر من روحك إلى ضوء قريب، وإلى سَهم لامع من سِهام عيون ترقبها، وإلى وردة تسقط من جنّةِ وطنك المطلوب، وإلى وجهٍ ينظر من الأفق فيبدو كأنّك تعرفه وكأنّه يعرفك، حتى تفصل بينكما شمس الحيرة.

فتروح تبحث عن هذا الوجه في الحدائق من وراء الشّجر، وتمشي في الجموع وتلتفت يُمنةً ويُسرةً؛ لترى وجهاً تبحث عنه بحرقةٍ؛ وجهاً كلما وجدته يختفي، وكلما أَلِفْتَهُ تنسى ملامحه، كأنك في كل مرة تنظر إليه كالمرّة الأولى، وتقع في شباك أسره مجدداً كأنك لم تتعلم من المرات السابقات!

ويفتح نافذة في قلبك يطُلُّ منها حين تُغمض عينيك فتراه في حلمك، وحين تفتحها فتراه في الأيام، والأواني، والكؤوس، والمرايا، وفي الجموع لا ترى إلا وجهاً واحداً؛ وجهاً ترى لأول مرة ملامحه.

فتقف بين الجموع وهم ينظرون إليك نظرة تُخفي خلفها الأسرار؛ نظرة كأنّها من عين واحدة لا من عيون جمع، فتترك العيون تُحدّق، وتبحث في الجهات حتى تجد الوجه الذي أسَرَكَ، وبحثت عنه حتى جُرِحت أقدامك، وبُرِيَ حذاؤك، وتمشي نحوه ببطء كما يمشي المُحيطون

بك، تريد أن تنادي عليها لتنتظر، لكنّك لا تعرف لها اسما، وحين فكّرت في الوصول إليها، ومجاراة سُرعتها، وجدت المحيطين بك قد تجاوزوا مسافة غير قصيرة، ليضيع الوجه الذي تتبعه في الزحام، وتقف لتسأل: لماذا كل هذا البطء مني؟ ومن أين جاءوا بالخفّة التي عجزت عنها؟

وحين تعبت تراجعت إلى الوراء، وكوّنت قبضة يديك، بينما هم يتقدّمون غير مُبالين بما فعلوا بك، الفتاة التي تبحث عنها أمامك، لكنّك لا تعرف لها اسماً، ولا تعرف ماذا كان عليك أن تفعل أو تقول.

ترجعُ إلى سريرك الغائم بخيبة جديدة، ومفتون بوجهٍ لا تحتاج إلى البحث عنه بعد الآن، فلقد آستقرّ في روحك، ولو لم يرْمِكَ بنظرة، ولم تسمع منه كلمة، ولم تذقْ منه شعوراً يروي شِفاهك المُشقّقة، ويُوقِف عشقك النّاهب، ويَجبر قلبك المنهوب، ويَكُفّ شوقك الملهوف إلى نظرة إليه، ولو لم يبادله النظر.

❋❋❋❋

يرِقُّ قلبك كلما مرّ طيف تحبه، ويَرْقى في السماء، وتغرق في صمتك كزهرة ملقاة، أو كصورة منسيّة على جدار، وأنت تراه يُغادر دون حديث، ودون أن ينتبه لوجودك، وَجُودِكَ في حبه.

وتبقى جالساً أمام النافذة مُنتظراً أن يتسلّق الطّيف إليها ببُطء، ويُحضر كرسياً حذاءك ثم يجلس عليه، وينظر إلى ما وراء النافذة؛ ليرى العالم، وتنظر أنت إلى وجهه.

وكي لا تغرق في الخيال تخرج في مساءٍ شاحب، تملأ الغيوم سماءه، فيلتفُّ البرد حول أطراف أصابعك، وتتفقّد المارّة والشّرُفات، حتى يضرب الرعد السماء، ويضرب المطر الأرض، فتختبئ تحت شُرفة من الشُرف؛ كي لا يمسّك الماء المسكوب فتهلك من الصقيع، وتحتضن الجدار؛ كي لا تمر الريح على جبهتك، وترتعش كغصن بلا ثياب، وتتوسّد يديك على الأرض، مُنتظراً السماء أن تُقلع، أو يراك أحد من الذين يشاهدون المطر في الشّرفات فتأوي إلى بيته، وتظلّ مرميّاً كما أنت حتى يخطفك النُّعاس المهاجر، والتعب الغادر، بعد أن تسلّل البرد إلى صدرك.

ثم تستيقظ حين تُقلع السماء عن المطر، وتسكن الريح، وتبلعُ الأرض ماءها، ويتنفّس الصبح من جديد، فتقف على رصيفٍ مُبتلّ، بثيابٍ مُبتلّة، والبرد يأكل عظامك، والمشي على عظامٍ تتآكل أشبه بالمشي على الجليد وأشعة الشمس حاضرة، ولأنّك تُؤمن أن الأجساد تُحمل حيث تأوي القلوب، وأيُّما قلب أوى إلى وطن تبعه الجسد، تُطرق على بابِ بيتٍ قريب، وتتذكر قول أبيك: إن وراء كل باب أب!

فتطلُب المأوى من مالك البيت إلى وقتٍ معلوم، حتى تَجفّ ثيابك، وتَستردّ عافيتك، وتقوى على العودة إلى منزلك، فيفتحُ لك بابه بعد أن رقّ قلبه من حالتك هذه، ويفتح لك قلبه بعد أن سمع فُكاهة قصّتك، وفطرة حديثك، وبراءة حُبّك، ورأى في وجهك النور، وفي قلبك الخير.

ثم يتركك لقليلٍ من الوقت ويعود إليك بثيابٍ أخرى، ويُعدّ لك حَساءً دافئـاً لصدرك، ويتركك في غرفة لها شُرفة؛ لتنشر ملابســك، وترتاح قليلاً، فتشــكره على ما قدّم إليك من إحسان، وتجلس مكانك لتتفقّد العابرين، وتُراقب النوافذ بحثاً عن فتاة فتحت في قلبك نافذة لم تُغلق بعد.

وتتناول الحســاء رويداً رويــداً، تتناوله ببطء ولا ترغــب أن ينتهي، وعيناك تســيلُ بحبّ مكشــوف، كأنها ترتقب عودة حبيبها المُســافر، أو دعوتها إلى الســفر حيث يكون، أو وعدها باللقاء عن قريب، ولأنّ الحياة تتكون من لحظات قليلة وفقط، لا تكفي لصبّ المشــاعر، ينتهي الكوب، وتُعجّل بالذهاب، وتترك على عتبته الكثير من الحب، والكثير من العتاب لتلك الغريبة التي نســيت أن تعرف آســمها، التي جعلتــك لهواً للمطر، كقبعة بلا رأس، ومظلة بلا جســد، وورقة بلا كتاب، وأســيراً لدى العشق، فجعلتك تطرق الأبواب وعلى كتفك غبار الرصيف لا ورد الحدائق، وعلى وجهك نُعاس البرد لا تلك الحرائق، لعلّك إلى بيتها تحملك الأقدار لا الأقدام.

وبعد أن أُغلِقت الأبواب، عدت إلى مَسكنك وكلك يقين، وعلى لسانك جملة: إن كان للقلب مأوى، فلا سبيل لجسدي ليهرب.

****

انتبه!

القلب يرجع إلى الخلف.

مع مرور الأيام يفتح البئر أحضانه للوافدين الجدد؛ بئر يسكنه القمر، وهو أول وأصدق حُبّ لك، تقف على سطحه النجوم حارسة، وجارية مع مائه المنساب.

هم الذين سقطوا من عينك كلّ عام، ونامت في قاعه الأرواح؛ الأرواح التي شاهدت في عيونهم الحياة لأول مرة!

وبينما تغفل سيادتُك عن القلب، تُلهيه الذكرى فيعود إلى ما سلف، ويرجع بظهره حتى يسقط في البئر، فإن قاوم النّائمين في القاع، قبَضَ عليه حرّاس السطح، وإن تخلّص من حرّاس السطح، وقع في غرام القمر، وحرامٌ أن يقع المرء في غرام قمر في بئر!

وبعد أن سكنت عينيك لهفةُ اللقاء، وحَنَتْ أشجان النهر على صدرك، وملأت مياه الينابيع البئر، تَقع فيه دون حول منك، وتنادي بمزيدٍ من الماء، وأنت تتخلّص من أشواك الألم، وتضم المياه التي تظنها من ينابيع الجنة، وتنتظر فيه؛ لأنك تعلم أنها تأتي إليه كل ليلة، وتضع يدها التي يسقط منها عطر الفجر، وتحمل قليلاً من الماء الذي لا يكفي لريّ ظمأها، ثم تهرب مخافة الظلام، دون أن تعلم عن وجودك بالأسفل، وأنك من يضع الماء في كفها، وأنّ وقوعك في البئر كان لأجل أن تراها كل ليلة، فمتى تعلم بأنك هنا وتأتي لتراك؟

وما بين يقظة ويقظة، تُحاول أن تغفو وتذهب عيناك مع قطار النوم، لكــنّ عينيــك لا تنام، وقطار النــوم لا يتحرك؛ لأن الحنين مُشــتبك جوار القلب، والعقل لا يســكن؛ لأن التفكير كخرير المــاء، والذاكرة تأبى إلا أن تُقلّــب فيما حدث يوم اللقاء، وتُعيد مشــاهد النظر من بعيد، والجميلة تمشي أمامك، وأنتَ تنظر نحوها بهدوء الذي يحتضر، نظرات مكشوفة لا تستطيع منعها، ومشاعر مفرطة فاضت عن حدّها، وكل هذا دون حديثٍ منها معك، أو حديث منك معها!!

وأنت الــذي ذكرتها لعيون الليل، ومياه النيل، وهذا الشــجر، وغيوم المطر، ولتلك الســفن، وتلك الطيور التي تُهاجــر، ولم تفعل ذلك عندها، وكأنــك بلعت الكلــمات أمامها؛ الكلمات التي لا تكفــي لوصف مقامها عندك، وقيمتها لدى قلبك.

وبعــد أن تبتعد عن البئر، تمشي وعلى ظهرك الرســائل المكتوبة، التي لم تصــل إلى من كُتبت إليه، حَوَتْ على أوراقها كلمات ومشــاعر، رَقّ لها الورق، ودقّ كل الأبواب، لعلها تجد المقصود.

رســائلُ مُحتواها شــعور عميق تســلّل إلى قلبك، ثم قفز على الورق؛ الورق الذي إن فُتِحَ لقرأنا: أنا ســجينُك وسجّانك هذه الليلة، فأنا العارف عن خباياكِ المكنونــة في الداخل، وعن ورود القلب، وعن حُمرة العينين، وعن عناقك للوسادة كل ليلة، وعن بُكائك من أكثر الأشياء تفاهة.

أنا العارف عــن ألحانك التي تعزفينها، وعــن صوتك حين تُطلقين له العنان، الصوت المُتهادي بصمت، الأرقّ من أن تسمعه أذني.

وعــن الأراضي التي تعبرين منها، وبئر العشــق الذي تشربين منه كل يوم، فأنا من يضع الماء في كفّك، ويتأمّل وجهك طيلة نظرك فيه، دون أن تشعري بوجودي، حتى يذهب حَزَني، وتجيء إليّ سعادة الدنيا.

أنــا العارف عــن الأوراق التي تكتبــين فيها، ويقظتــك حتى صعود الشــمس، ونومك حتــى هبوطها، وعن ليلك الخالي مــن النجوم، وقمرك الغائب عن الســماء، وملكوتك الذي تعيشين فيه، وملائكيّتك التي يصعد نورها من ينبوع الفؤاد.

أنــا العارف عنك رُغم أننا لم نلتقِ إلا صُدفة، رأيتك فيها كمنظر باهر، ورأيتِني فيها بنظرتك الرّقيقة، وقد تبعتُك يوم رأيتك بين الزحام، وحاولت الوصول إليك لكنّني لم أصل، وبعد أن تعلق قلبي، جاءك جسدي محمولاً، بعد أن كنت ســجيناً لوجهك رغم أني لم أتعرض إلى الأسر، وســجّانك رغم أني لم أكن أراكِ في مكانٍ إلا بعد أن أُغمض عينيّ.

لتكن الليلة خالية من أجراس الألم، ولينسكب حُبّي كالماء على وجهك وقلبــك ويديك، حتى تــشرق نجمة الصباح، وتصعد الشــمس لأول يوم بعدما تقعين في حبي.

****

تنتظر هادئاً كما الكهف، تُصغي إلى الهتافات القريبة، وتتفقّد عقارب الساعة، وتنتقد الغياب الذي يقطِف زهور الأمل، وتُحدّق في المدى لعلّك تجد امرأة تدنو، حتى تسقط الشمس مُجهدة، وترمي نحوها مِنديلاً من غبــار النهار، وتزداد تغيّظاً عندما يتكرر الغياب، وتتشــابه الأيام، وتأكلك الحيرة، وتُصبح مرهوناً لتســاؤلاتٍ عديدة، كأن قلبك يتعرض إلى ركل من الغائب، وركن على قائمة الانتظار، فتكسر عقارب الســاعة، وتســخر من الزمن، وتعاتب الليل المســتبد الذي دائماً مــا كان على عجلة من الحزن، وتقف لا تتوقع قدوم أحد، ولا رحيل أحد.

وبعد أن يذهب غضبك، تمشي فتعبر من شارع السّكارى، الذين تتدلّى أعناقهم وهم يتحركون، ويســيل لعابهم عندما يتحدّثون، وتُغلق عيونهم وتُفتح وهم لا يشعرون، وكأنّ الأرض قد فقدت جبالها الرواسي فأصبحت تدورُ بهم، وكأنّ السماء المرفوعة قد باتت على وشك الوقوع عليها.

تمــشي وليس لك من رفاق لتُفرغ ما بجعبتك في كؤوســهم، ولا إخوة لتكسر معهم حواجــز الصمت وتتحدّث، ولم يكن لك في غربتك إلا قلبٌ واحــدٌ وقد فاض، ووجهــاً لم تتعرف عليه في المرآة آخــر مرة، حتى تجد هــؤلاء الهاربين ضجراً من ضجيــج الحياة، يهاجرون بعيــداً عن صخب البنايــات، وينصبون الكثير من الخيام؛ لأنها كانت تســتقبل الكثير منهم يوماً بعد يوم.

تذهب وتنصبُ لك خيمة، وتُشــعل النار طلباً للدفء، وتجلس معهم في حلقة، يقف في منتصفها واحداً منهم، ويتحدث عن تجارب حياته بعد أن شرب الكثــير من كــؤوس الألم، ويقفون جميعاً بعده واحداً تلو الآخر، حتــى يجيء الدور عليــك، فتقفز إلى دائرة الضــوء، وتنظر نحو عيونهم الساهرة، وتنظر للسماء التي كانت على الموعد فأمطرت، وخالف الجميع ظنّــك عندما ثبتوا في أماكنهــم ولم يتحركوا، ولم يذهبوا إلى الخيام، وظلوا ينتظرون حديثك، وهم الغارقون في بحار الألم، ومع ذلك يكترثون بمشاعر الغير، ويتركونهم يصبون المزيد من المشاعر نحو كؤوسهم الممتلئة، فتسأل نفسك سؤالاً: إن كنت لا تشعر بآلام غيرك، فكيف يمكنك أن تخفف آلامك؟

وبعد أن تُشــاركهم ما في القلب من مشــاعر، تظن أن الفجر قادم لا محالة، وبعد أن تتلاشى تلك الغيوم التي تُســقط المطر، ستتلاشى الهموم التي طُبعت على القلب، فتتحدث وعيونهم تنظر نحوك وفقط، لا يُبالون بمــا يحدث قربهــم، أو خلفهم، ولا يُبالون بتلك الأمطــار التي تُنقر فوق رؤوســهم، ويســتمعون لحديثك حتى تنتهي، فيعانقونــك جميعاً، حتى يسرقوا الحزن من قلبك، ومن بئر الروح، وهم لا يعرفونك، وأنت لا تعرف منهم أحداً.

وعندما تعود مُتناســياً كل هذا الدخان، يُهيئــك الرحيل للرجوع إلى بيتــك، قبل أن تَغلي الذاكرة مُجدّداً، فتحمل حقائب الســفر على ظهرك،

وتترك آخر رسالة لك على تلك الأرض، ورسالتك الأخيرة إليها:

لمـــاذا عليّ أن أمشي إليكِ دائماً، أن أطـــرق الأبواب التي تقفين خلفها، وأزور الأماكن التي ترتادين إليها، وأكتب إليك الرسائل واحدة تلو الأخرى؟

لمـــاذا عليّ أن أبقـــى خلف ديار الحزن في صدرك، وبســـاتين الفرح في قدرك، وخلف كل شجرة تمشين بجوارها، تعتقدين في مشيك وحيدة بأنك كذلـــك، ولا تعلمين بأنني هنا، أراقبك من خلف الأوراق -الأوراق- التي أقطفها بعد عبورك، وأضعها في جيبي كي أحتفظ بعبيرك، وأكتب لك عليها بأنني كنت هنا لحظة ظنك بأنك وحيدة، ولحظة ظني بأنك معي؟

ولمـــاذا عليّ أن أمشي وحـــدي في جهة، وأنت تخافـــين على ثيابك من الوسخ في الجهة المقابلة؟

لماذا أنا دائما من يمشي؟

لماذا أنا دائماً من؟

لماذا أنا دائماً؟

لماذا أنا؟

لماذا؟

****

يدك باردة، وعينيك تُراقبُ فتاةً بضفيرتين تبيع الورد لكلّ حبيبين هنا قُرب النيل، ولا تقترب منك؛ لأنك وحدك، وخلفك عســـكريّ يحمل مخلة

ثقيلــة، ينتظر أصحابه ليرحل معهم، حزينٌ هو، وحزنه يقفز على رأســك كأنّ رأسك خاوية.

تُفكــر في ورودٍ مرميةٍ قُربــك، وهي تنظر إليــك لتلقفها من الأرض. حزينةٌ هي؛ لأنها وقعت بين أيــدٍ لا تعرف قيمتها، تركتها للأقدام، ذابلة، هامدة، مكسورة الخاطر، وهي التي تسابقَ عليها الناس لقطفها، وشمّها، وإهدائهــا للمُحبّين، ووضعها في أكاليلٍ وتُــرب صالحة للنمو، ورَيّها لتملأ الأجواء برائحتها العطرة.

وبعد أن ظنّت أنها وقعت في أيدٍ أمينة، سُرعان ما خاب ظنّها، وعادت بائســة وحيدة مرمية في مكان لا يُناســب رقّتها وجمالها الطّاغي، وطغى عليها الحزن حتى ذهب وهجها.

تنظر إليها بعين تملؤها الحسرة؛ لأنكما تتشابهان حالاً، وكثيراً ما يُشبه الــورد البشر، وتُطيل النظــر حتى ترفعها عن الأرض، وتمســح عنها غبار الطريق، وتفســح لها مكاناً تجلسُ عليه كي تُراقب المارّة مثلك، أو تسمعُ لما يدور في ذهنك من شوقٍ للأهل، وعشقٍ للمعاملة السّهلة، اللينة، التي تجمعك مع القليل من الحاضرين بقلبك، الكثير من الغائبين عن حياتك، الذين وجدوا أُنسهم في مكان آخر.

تجلسُ خارج المنــزل، وقلبك وحيد مثلك على رصيفٍ بارد، مُجرّد من المرافقين والأصحاب، يســيرُ جانباً وأمله أن لا يطول الطريق، كعازفٍ على

آلته ينتظر القصيدة أن تنتهي؛ كي يسـمع التصفيق. كمُنشد على المسرح يأمـل أن لا تخونه نبرة صوته قبل النهاية. كمسـكين ينـام في البرد يأمل حضنـاً من المارّة قبل أن يتبعثر في ريح شـاردة، قلبك خارج المنزل وحيدٌ مثلك على رصيفٍ بارد.

****

تكسر زجاج الحكاية وتُعيد ترتيب المشهد، فتضع الكتب في الحقائب، وتتأهّب للخروج، قبل أن تنقر الشمس النوافذ، مودّعاً وجه البائع الباكر الذي يسند دراجة للجدار عليها عشرات الصحف، ووجوه النساء العائدات من البار، اللاتي يتحدّثن عن صبغة الشعر، والرموش الصناعية المستعارة، ويتسكّعن في الطرقات، ومنهنّ تفوحُ روائحٌ تُزكم أنفك، وأطفال الشوارع، وكبار السـنّ، الذين يتوسّـدون الرصيف، والأماكن التي منحتك مواعيد حب، وأطلقت الأناشـيد خلفك، وقطفت لك الزهـور، وأبواب الجامعة التي يقع خلفها وهم العلوم، ونسيج الأماني البالي لقلبِ طفلٍ وليدٍ تملكه، والبيت الذي سكنت فيه وتركت خلف بابه الرسائل المكتوبة، التي تحتاج إلى خلوة هادئة؛ لأنها سـالت من نزيف الأنامل، كأشرعة أنهكتها الرياح حتى وصلت إلى المرافئ.

وتعود إلى موطن قلبك الأصلي، إلى حيث المنشـأ والنشـأة، والشمس قد أسفرت، فتسمع صوت الراديو قرب الباب، وترى وجه والدك الحكيم،

الذي يُشــبه الشمس حين تقسو وترحم، وتشُــدُّ وتلين، ووجه أمك الذي يُشــبه القمر رسول الشمس اللطيف، الذي يحنو ويرحم ويعطف، تراها وهي تطوف بأطباق الفطور، وتحُفُّ الأسرة ببخار الحليب، وصفاء العسل، فتطرق الباب وتبعد وجهك؛ كي لا تلفحه حرارة الشــوق، وتضع الحقائب جانباً لكي لا تُعيق العناق، وتُقبل عليهم فيمســحون عن جبينك التعب، ويتركون عليه القُبل، ويحملون عنك ما أصابك من نصب، ويصُبُّون عليك الحب صبّاً، ثم يتركونك للراحة؛ كي يستمعون إلى قصتك في المساء.

فتهتــم أمك بأعمال البيت طوال اليوم، وعــلى نهجها إخوتك البنات، ويصنعن الطعام الذي تحبه، ويخرج أبوك إلى عمله تحت ســقف النهار، وتضع جسدك المعجون من الأرق، وتغرق في نوم عميق.

ومثل الليالي الخــوالي، يأتي العيد إلى الأسرة كلما اجتمعت على مائدة واحدة، فتســكن روح الكآبــة، وتصعد روح الفكاهــة إلى الملأ، وتنطلق الدُّعابــات والمُداعبات، وتناولون بعضكم البعض الأرْغِفة، وتتقاســمونها فيما بينكم والبشاشــة وارفة، حتى مدّ الرضا ساقيه بعد الشبع، وتشربون أكواب الشاي.

ولا تسلم من عتاب أمك لخُسرانك الوزن، وعتاب أبوك وإخوتك لقلّة التواصل والسؤال، فتخبرهم أن الغربة مترية للمشاعر، ومقربة للوحشة، وتربة غير صالحة للحياة؛ الحياة التي أَلِفت فيها مشاعر التيه، وإذا رحل

يومٌ عوّضه ألف يوم شـــبيه، وأنّ الليل في الغربة ويلٌ مُطبق مُغلق على الصدر، إذا ســـهرت فيه سهر معك الشوق، وإذا نمت فيه نام معك الأرق، حتـــى تكتشـــف أنه قد سُرق مـــن عمرك ما سُرق، من أيـــام أشرقت فيها الشـــمس حتى أفلت، وتبعها القمـــر في الظهور والأفول، ورفع فيها ظُلمة الليـــل النهار، وغطّى ضياء النهار الليل، وكَسَـــتْكَ فيها مشـــاعر الأضداد، ولطمت خُطاك مشـــاعر الحب المُثيرة، وضاعت خُطاك كثيراً عن الأبواب التـــي هاجرت لأجلهـــا، وضيّعتك الأبـــواب التي ركضـــت خلفها، وعدت مهزوماً تُحاول أن تُجمّد ما فيك من الشعور، حتى راق أمامهم فرقّوا.

ثـــم تصعد إلى ســـطح البيت، وتنظر إلى الطبيعـــة وتتذكّر أيام صباك، وتلك الصحبة التي نافســـتك في القرآن، وطُفت معهـــا القرية ليلاً ونهاراً، فضربت الكـــرة بالأقدام، ومنعت الكره أن يتســـلّل بينكم، وأردت البقاء معهم رغم كل شيء، وكنت لا تستطيع التخلّي أبداً.

ثـــم دارت بـــك الأيام ولأنّهـــا دُوَل نقص العدد، ثـــم دارت فنقص، ثم دارت حتى بقيت وحدك، وجاء اليوم، ومَرِيَ قلبك بالكثير من الذكريات، حتى أصابك النّصب، وتجدّدت بداخلك المواجد، حتى تيقّنت أن الصحب كالغصون، وكيف لشجرة أن تعيش بدون فنن؟

❋❋❋❋

المشهد السادس
الأُســرةُ مــأوى

"الكل يمدُّ يده لأجل أن تظلّ صفحتُك القادمة بيضاء"

يجيء إليك والدُك ويشاطرك الأحزان، ويُخبرك أن تلك السنين ستعيش فيها في رحم الصعاب، تتخبّط في الظلام حتى تهتدي، وتسير في الجفاف حتى ينتشر العشب، وتضُجُّ في جسدك وجوه الغياب، وتستعين بالذي مضى على ما هو آت، وبالذي هو آت على ما مضى، وبما تعلّمته على جهلك، وبهمتك على همّك، وبحلمك على غضبك، وتمسح عن قلبك قسوة الذكرى، وعن أهلك غبار الإهمال، حتى تصل إلى نقطة تعود منها إلى الحياة، أو تعود منها الحياة إليك!

ليسلمَ قلبك بُنيّ من هذي الكآبة، ومن ذُعر الغياب، ومن هَول الشوق، ومن عناد الشهوة، ومن الغيوم التي تُشتّتُ روحك كما تُشتّت نقاء السماء، حتى تجد ضالّتك، وتختار بُساطك الأخير، وتتقدّم نحو الفطرة التي نشأت عليها، ولا تُبالي بالقادم، فالقادم مُلقى عليه غطاء، لا تقوى على كشفه إلا رياح القدر.

ويُبارك رأسك بقبلة من شفاهه، ويترك السلام حولك قبل أن يُغادر، فتُقارن أيام الغربة بدونه، بيومٍ واحدٍ شاطرك الأحزان فيه، فتُوقن أن يوماً واحداً بلا أب، كدهرٍ كاملٍ بلا حياة، وأن أنفاسه الطاهرة في حياة أبنائه لهي خيرٌ لهم من أموال الدنيا، ولو آجتمع بردُ الشتاء في كفة، وحرارة عناقه في كفّة، لرجحت كفة عناقه، فهو يَدفع عن بنيه البرد، ولا يتحمّل فيهم الألم، ولا ينام له جفن وأحدهم يقول آه!

حينها تســقط الكلمات كالورود على تعبك، وتطرد مشقّة السفر من نبعك، وترفع مشنقة الغربة عن رقبتك، وتغسل وجهك بماء الورد، فيغفو مصباحك الذّابل، ويصحو وجهك النّاضر مع حلول الضحى، وتُشرق جميلاً كشــمس الربيع، وتَطرق على قلــوب الأهل، وتقترب حتى يذوب الجفاء، وتزيد الصلة، وينمو التواصل، ويقل شقاء العيش، وتهبط أنفاس الشوق، ويصعد النور من جوف الظلمات، يزُفُّ البشرى بزوال القشرة عن الجرح، دون الشعور بأيّ ألم يُذكر!

وتنطلــق بعلمك نحو الغاية، حاملاً معك الجانب المُضيء، الذي زرعه بعض محــاضري الجامعة، وتركوه ينمو داخلــك، حتى أتى وقت خروجه ليحتكّ بالواقع، ويحتكم إلى الإبداع في نهجه.

وتنزع عنك جانبها المظلــم، الذي زرعه الكثير من المحاضرين، الذين يهتمّــون بصناعــة الآلات البشرية، التي تفعل ما تُؤمــر، والتي لا تُواكب العــصر، ولم تخــرج إلى النور منذ عقود، يصنعونها عــلى قدر الإمكانيّات العقلية التي يمتلكونها، والتي ما أفقرها في الحقيقة!

ثم يقومــون بطريقة غير صحيحة بتصميم الآلة، ثــم يزُجُّون بها إلى الخارج، فتصبح بين باقي آلات العصر الخردة التي لا تصلح.

حتــى أصبحت الشــهادة الجامعيــة كأجنحة تُظلّك فقــط، لكنها لا تحملــك إلى العصر الحديث، وإن فعلــت لا تُؤهلك لأن تكون جزءاً منه إن لم تُطوّر ذاتك!

وكيف تكون مبدعاً وأنت تفعل ما تُؤمر، وتحمل على عاتقك همّ كل ما يُملونه عليك، وتفقد عمرك داخل جدرانها كما تفقد شــعرك، ودون أن تَعــي بعض الأجهزة الداخلية، بالضغط الذي يُحيط بك من الخارج، وعن خوفــك من الخروج لكي لا يهرب الوقــت، وتركك للقهوة لكي تنام مبكراً، وعدم نومك والتفكير مُستيقظ؟!

وبعد أن تنتهي دراستك فيها، تقف على الميناء، وتصعد على سفينتك الخاصّــة، وتُبحر نحو محيط العلم العميق، وكما تُعطي الســماء الأرض، تُعطي الأرض من يسعى عليها، ويُصلح فيها، ويُحيي الحرث والنسل، وكما يُورث السعي الرزق، يُورث العلم جميل القدر، وقوة العقل، والقدرة على الخلود في قلوب الخلق بأثرٍ لا يزول.

****

تبقى أمك ماســة البيت مهما مرّ عليها الزمن، فوجهها الوقور السّمح الــذي تجتمع فيــه الطلاوة والتجاعيد، وما فيه مــن عينين كالنوافذ يُرى منهما العالم، ويَرى العالم فيهما مشــاعر الحب والرِقّة، والغضب والقلق، والخوف والرجاء.

وجهها الهادئ في تعابيره، السّــاحر في ملامحه، الصافي كماء المطر، ترى فيه نفسك كأنه مرآة.

تعرفُهــا من صوتها، ذلك اللحن الخالص من الرهبة، المُســتخلص من

رحمات القدير، تتخلّص عند سماعه من لسعة الخوف، ولدغة الجوع، وتتلخّص كلمات الأمان، حين تأتي من البعيد، وتعود إلى بيتك فتنادي: يا أمي، فتجيبك: أنا هنا، أي أنك أصبحت آمناً ولا بأس عليك!

تعرف أذنك هذا الصوت، وتعلم عُمقه ومداه وحدّته وحجمه واتّساعه، وتعرف نوع النبرة، وتفهم معناها المقصود، وتستطيع أن تميّز هذا الصوت عن غيره طِيلة حياتك، وتفهم بالتدريج همسه وصياحه، وتنتهي بزجره.

ثم تعرفُها بعينيك، وتضحك معها بجسدك كلّه، وخاصةً قدميك، حين تلمس شفاهك بأناملها الرقيقة، فتُحرك أوتار ضحكك في رنين ناعم كثيف، وتخرج منك ضحكات غنيّة النّغم.

وتعرفُ رائحتها التي تنضح من صدر عباءتها، التي إن شمّها أنفك تمثّلت أمام عينيك صورتها، فهي كأزهار الحديقة يفوح منها الشّذى، وكالبخور للبيت يطرد كلّ رائحة كريهة، وكم وهبتك من عطرها مع كل عناق!

وطعم الأكل الذي تصنعه يعرفه لسانك، حين تجيء حاملةً مائدة الطعام الكبيرة، وتضعها على السماط، وهي محملة بالسلطات والحساء واللحوم والدجاج، فيسيل لُعابك، وتشبع عيناك من بهجة المنظر، وتُقبل يديها بعد أن تشبع بطنك وتحمد الله.

وتعرف يدها، ذلك المهد الصغير الذي نشــأت عليه، بملمسها الناعم، ورفقها الدائم، فأنت قريبٌ منها منذ ولادتك، وملتصقٌ بها!

ولو ســألت وجهك عن تلك الأيدي لأدرك ملمســها، ومداعبتها إيّاه، وقُبلاتها عليه.

وبقيت على راحتها حال رضاعك ونومك، ثم أعانتك على المشي مع كل مرة، وضربتك بها عند ارتكابك الأخطاء، ولكم صافحتك وعانقتك عند اللقاء.

وتعرف قدمها التي تُشــبه الأقلام، تتحرّك بخفة ونشــاط، تسعى بها لكيــلا تترك فراغاً في حياة زوجها وبيتــه، وتُلّبي مطالبك واحداً تلو الآخر، فهي أكثر الواقفين على أقدامهم، وأقل الجالسين والنائمين راحة!

وبطنهــا التي حملتــك وضمّتــك في ظلماتها، وثديها الــذي أرضعك؛ فوهــب لك الحياة، وكتفها الذي حمل، وعقلها الذي تحمّل، وقلبها الذي رحم، ورحمها الذي أنجب، ونســلها الذي كبُر، وكبرُها الذي أقبل، وأظهر لها الدهر أنيابه؛ الدهر الذي يظنّها فريسة!

تلك الســاهرة لمرضــك، والعاكفة على إنفاذ رغباتــك، التي لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، لظننتها ملاكاً، فهي أكثر من لاطفك حال صغرك، وأكثر من سمع شكواك، وأكثر من أخبرك الحكايات، وأكثر من عبر معك الصعاب، وهي الأكثر في الكثير، وأتى الدور على لينك، وخفض جناح الذل من الرحمة، وإحسانك ولُطفك، فهل تكون أمّاً لأمك؟

ينطلق كسـهمٍ عنـد الصباح إلى تربة الأرض، يتفقّد العشـب، ويُلبّي حاجة الزرع، ثم يعود إلى البيت ككل رجل قديم لا يرتدي ثياباً على الزي الحديث، غير أن ملابسـه الواسعة الفضفاضة على جسمه، المصنوعة من أقمشة رقيقة لها ياقة واسعة، تسر الناظرين؛ لأنه هو من يلبسها، ويبعث فيهـا أصالة الشـخصية، وهيبة الهيئـة، ثم يذهب إلى عملـه الحكوميّ والشـمس بازغة في الأفق، لا يتأفّف من حرّها؛ لأنه ألف السـماء، وورث لون الشمس الذهبي.

ويذهب إلى عمله والأمطار مُعلّقة في السـحب، واضعاً مظلّته تحت إبطه، وماشـياً أو راكباً حتى يصل إليه؛ عمله الذي يسـتمر إلى منتصف اليوم، ويأخذ جهده وفكره، وفور أن ينتهي منه، يشـتري فاكهة ويحملها عـلى يديه ثم يعود إلى المنزل، ويجمعكم حوله في وجبة الغداء، ولا يهنأ إن أكل وحده، أو غضب أحدكم وترك المائدة؛ المائدة التي علّمتكم الرضا بالقليل فلم تغضبوا أبداً، وإن فعلتم لا يبقى للغاضبين نصيب منها!

ثم بعد أن يهنأ بطعامه، يرتاح قليلاً حتى ترتاح الشمس ولو قليلاً من حرّها، ثم يذهب إلى زرعه، ولا يعود قبل أن تعود الشمس لمستقرّ لها.

وعـلى الرغم مـن عمله أكثر من عمـل الآلات، وتعبه طـوال اليوم، وركضه في كل وادٍ، وسـلوكه في كل فجٍّ؛ لكي تنفجر أمام بيتكم الأنهار فلا تشعر بظمأ، وحفاظه على ثيابه التي عاشت لسنوات؛ لكي تلبس الجديد،

وذهاب لونه تحت أشــعة الشمس؛ لكي يبقى لك ظلاً عندما تمشي تحته، وعودته مُنهكاً لا عظمةً في جســده إلا وزارها التعب، إلا أنه كان يُســخّرُ لــك ظهره حال صغرك عندما تطلب، فيحملك عليه ويســير بك دون أن تهتزّ، ويحملك على كتفه ويركض بك دون أن تســقط، ويتحوّل إلى مُهرّج لتضحك حتى يجفّ ريقك، وهو يُخفي عنك تعبه؛ لأجل أن تنتظر قدومه بشغفٍ كل ليلة.

كانــا أكثر ما يُميزاه هــما صوته ورائحته، الكولونيــا التي يضعها على وجهه بعد أن يحلق ذقنه كل يوم، تظل رائحتها تفوح منه إلى اليوم الذي يليه، ورائحته على الملابس لا تطير حتى وإن غُسلت، وصوته الذي يوقِظ الغافــل، ويُطمئن النائم، ويُبشر المنتظر، يتمــدّد في أرجاء البيت فيبعث الســكينة، وله مشية مميزة، تعرفُهُ بها ولو على بُعد أميال، والأماكن التي يرتاد إليها قليلة، أقل من أصابع اليد.

لك مكانة في قلبه؛ لأنك أول من قلت له: أبي، وله مكانة في قلبك؛ لأنه أول الأسماء التي تنطق بها، وظل بجوارك كظلّك منذ نعومة أظافرك حتى أصبحت تتسلق حبال الطول، ووصلت لمستوى طوله!

لم يبخــل عليك في نفقــة، ولم يتخــلّ عنك بعد خطــأ، وبقي رفيقك الناصح، وظهرك القائم كأنه عمود يصل الســماء بالأرض، وســندك الذي يسندك كما يسند العكاز كبار السن.

تجــرّع الكثير من ألم الراحلين، وذاق الكثير من علقم الفراق، وهربت منــه الكثير مــن النجوم، إلا أنه خلع الهموم عن رأســه كما يخلع الملوك تيجانهم، وألقى بها بعيداً عنك وعن بيته، وراح ينتظر المدد الذي رآه في وجهك.

رجل ذو بســاطة وعفة، ورفعة عن الســؤال من أحــد، عيناه لم تبح يوماً بأسراره، وأسراره قلّما تخرج من صدره، وجهه ناضر بالعطف واللين، مألوف لــكل عين تراه، كأنهــا تعرفه منذ زمن بعيد، ويســتقر وجهه في جوف قلبك مع وجه الســيدة أمك لا يفترقــان، ويبقيان فيه أبداً؛ لأنهما الشاهدان الوحيدان على الملحمة التي تُسمّى حياتك، وأنت الشاهدُ على ما فعلت الحياة بوجهيهما!

له سيرة حسنة بين الناس؛ لقربه كل القرب من دينه وخلقه، ولضميره النقــي الذي يمتلكه الأحياء، ولسريرته الصافية من أحقاد النفس، ينشُــد الحق والإيمان، والصدق في الأيمان، أحلامه بســيطة بيضاء بلا شــمس ولا سحب، وأمله مكنوز داخله لا يصرخ أو يستغيث منه.

يتذكّر معك هبوب نســائم الماضي، وهو يســبقُ إخوته إلى أبيه حاملاً زجاجــة الماء؛ ليروي عطشــه، ونومه على ظهــره في أوج الظهيرة، ووضع يديــه على كتفه بعد أن وصل إلى مســتوى طوله، ثم يشــهق بلا صوت، وينظر إليك وهو يأمل أن تتســنّى له الحياة حتى يأتي النبأ العظيم الذي يراك فيه في بزة العرس، وتطوف حوله كفراشــة، وتأتي له بأحفاد يرى كم

بينه وبينهم من شبه، وتبقى أحلامه البسيطة مستيقظة في قلبه الساهر، تتجدّد مع كل لقاء بينكما، وأشواقه تفيض نحوها.

ومـا ضاق صدره منك، لما ضجـرت من المصاعب قبل الأوان، وظننت أن جناح أحلامك كُسر، ولمّا تعجّلت الفرح الذي تأخّر عنك كثيراً، والحبّ الذي داهمك، وبقي صدره واسـعاً كأحزان العباد، وإلهامه لطالما ظهر في حديثه، وآماله كانت وصايا، لعلّ السماء تكون غيمة لك من حر الصيف، والأرض ممهـدة لك في وحل الشـتاء، وأن يكون قلبك كالماء الجاري، فما تعـرّض إلى القبض، ولا تسـلّلت إليه الأحزان، ولا نام فيـه الأحباب، ولا أصابك فيه أحد بسوء، ودامت دماؤه تسري إلى أطرافك فلا تنضب، ودام فمك الذي ينطق صادق، وعينك لا تنظر إلا إلى ما يُرضي الخالق، وقادتك أقدامك التي تحمل البدن، إلى جنات عدن.

❋❋❋❋

أولئك الذين يبحثون مثلك عن الأشياء المفقودة في حياتهم، لا تكبحهم ظلمات الليل، ولا يُغريهم ضياء النهار، ولا يقهرهم اليأس، ولا تمنعهم النفس.

المسافرين فُرادى في محطّات السفر، الذين تضيق بأرواحهم الكراسي، والنوافذ لا تضمّهم برأفة، المُثقلين بوهم الحوادث، الحائرين كزّوار الليل، المتعبـين وعيونهم تحكي، غير الشـاكين لأحد كأنهم بلا لسـان، المؤجلين صرخة الخوف، المتأخرين كعادتهم.

أولئك السّائمين مثلك، الذين سئموا صورتهم في المرآة، وما عادوا يُبالون بما رأوه، الذين ملكوا وجهاً جميلاً لكنّه تغيّر، وعائلة كبيرة لكنها تفرّقت، وفتاة كالشمس لكنّها غربت، وثياباً كثيرة لكنّها أصبحت بالية، وأحلاماً كالرمل لكن حرّكتها العواصف، ونظرة شجاع لكن كسرتها التقاليد.

الذين عادوا أمام المرآة وجمعوا وجوههم، ووقفوا أمام العائلة كدرع، وركضوا تحت ضوء القمر بدلاً عن حرّ الشمس، ولبسوا ثيابهم البالية بفخر، وجمعوا أحلامهم في وعاء من نحاس، ورفعوا أعينهم أمام التقاليد؛ عيونهم التي تنظر إلى بعضها الآن، فترى كم أن دروبهم متشابهة.

أولئك الذين يخافون مثلك من التعرّي، ويكتمون أسرارهم قدر ما يستطيعون، يُحبون ملء ما أمكنتهم الخيبة، ويقفون لا يتوقعون قدوم أحد ثانية، حتى تحل عليهم العتمة، فيقفون فرادى كشجرة ساهرة، ولا يُحرّكون ساكناً، ولا يُوقفون متحركاً، تجدهم رُحماء فيما بينهم، لا يتركون عزيزاً عابساً بدون بسمة، ولا غريباً عابراً بدون زاد، ولا مسافراً وحده بدون عناق، ولا زرعاً مائلاً بدون ماء، ولا قطةً تطوف البيوت بدون طعام، ولا يتركون سيّدة على رأسها الأثقال إلا وحملوا، ولا فقيراً سائلاً إلا وأنفقوا، ولا مريضاً لازم الفراش إلا وزاروا، ولا فاقداً من أهل بيته إلا وآزروا، ولا مُسنّاً يمشي على عُكّاز إلا وسندوا!!

أولئك الذين لا يمحون الأثر خلفهم، وينتبهون إلى خطواتهم للأمام،

مُخبّئين في وجوههم شيئاً يمُدُّهم بالضوء؛ الضوء الذي يصعد من نور قلوبهم التي سكنها الإيمان، يلتفتون صوب الجهة الأخرى، وينظرون للطريق من كل الجهات، كنظرتهم للأشياء التي تحتاج إلى حسم، وتدخل سريع.

أولئك الذين يطبّقون الإنسانية، ولو تطلّب الأمر أن يُصبحوا جسراً ليعبر عليه الجميع إلى جانب أكثر أماناً، أو وسيلة نقل للمسنين الذين لا يستطيعون السير، أو دابة تحمل اليتامى على ظهرها لتُعيد إليهم البسمة، أو مرآة لمن فقدوا البصر، أو قلماً لمن فقدوا السمع، أو جداراً في حضرة الكبار لا يُجيدون إلا الصمت، أو ماءً جارياً في حضرة الشباب الحامي يبعث الرواء، أو ناراً حامية في حضرة الأشقياء تقيم في قلوبهم الحرائق، أو عُشباً نديّاً في طريق الغرباء ينسون عليه مشقّة السفر.

أولئك الذين اتخذوا من العزلة رفيقاً لهم، ومن الجدران جمهوراً يستمع إلى ألحانهم، ومن ضوء الشمس نوراً يُنبئهم بيوم جديد.

أولئك الذين يكرهون الزحام، ويهجرون الأماكن العامة، ويهاجرون بعيداً عن وادي الأيام، تراهم غرباء بين غرباء، لا يُعرف من أين أتوا، ولا إلى أين يذهبون، الذين إن شعر بألمهم أحد، فهذا كاف ليُخفّف آلامهم.

أولئك الذين يجدون ظرفاً فارغاً من الرسائل، وصندوقاً فارغاً من الهدايا، وكوباً فارغاً من الماء، وبيتاً فارغاً من الأهل، وقلباً فارغاً من العشق، وعملاً فارغاً من الهَويّة، وهواية فارغة من الإيمان.

الذيــن لم يبق أمامهم شيء، ومن ورائهم تركــض الذكريات، وصخب البيــوت، وعلى الرغم من هذا يســيرون كأنهم أسرى للســماء، لعلّ قمراً يسقط في شباكهم فلا يترك شيئاً مما سبق ذكره فارغاً!

****

في نهار جميل تُظلّله السُــحُب، كظلّ الســحابة التــي لم تُفارق النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-

يحملك الجســد إلى حيث هوى القلب، وتفتــح عينيك لتفوز بلؤلؤة نادرة، وحجر كريم؛ عينيك الحائرتين كالغريب، الشاحبتين كالسّاهر ليلاً، الهادئتين كالذي يُبصر البحر، وتتحرك أقدامك بمشــاعر ســاكنة كمشاعر الماء، نحو قمر ترغب أن تُســامره، وجســد تأمل أن تــأوي إليه كالوطن؛ حياتك تعتمد على نبضات قلبه.

نحو فتاة تكاد تشــبه الملائكة، فترمي عليها شــباكك من بعيد، وتمشي حتــى تصل إلى عينيها؛ عينيها التي لا تمتلئ إلا عندما تنظر إليها، فتنفض عنها غُربتها الطويلة، وفراغها المُســتبدّ، وعناءهــا الخفيّ، وترفق لها إناء الحــب، ورأفــة الثكلى التي عاد وحيدها، وكما يســقط القمر في شــباك النهار، يسقط قمرك في شباكك، وتعود به إلى البيت!

تلك السماء رغم وسعها مظلمة بدون القمر، وهذا الليل رغم هدوئه حالك بــدون النهار، وهذا النهار رغم صفائــه مُعكّر بدون الحب، وهذا

الحب رغــم كثرته قليل بدون أنثــى، وهذه الأنثى رغــم نضجها ناقصة بدونك، وأنت رغم ثباتُك مســتضعف من العالم، وهذا العالم رغم سِــعته ضيق عليك بدون زوجة تنتمي إليك، وتنتمي إليها!!

زوجة تحفظ وجهك كأنها مرآة، وتدرك نهجك كأنها عاشــت معك في الماضي، وتســبق يديك إلى صفحةٍ أمامك لتظــلّ بيضاء، وتحمل إلى قلبك براءته العذبة، وتحويه برحيق العشق، وتحتويه بوجهها الأشد عذوبة من ماء النبع، وتغمر جســدك في الصقيع كما تضم الفواكه بذورها، وتُرطّب جســدك في الصيف كأنها عشب أخضر يسقط عليه الندى، حتى يخطفها النوم من التعب؛ لأجل أن تجعل بيتك يبدو كبيت.

تنام كالأطفال، ومن فمها يخرج عطر النّعناع في الفجر، ومن شــعرها رائحة الياســمين، فتضمها بحنــان الأب، وتمر يدك على وجهها؛ لترفع عنه شــعرها المتطاير، وتتأمل نواحيه، كأنها صورة ترقد في دفتر قديم، أو حور ســقطت من الجنة، مغســولة بماء مقدّس، حتى يلُوح الصمت في الأفق، ويخترق النوم الجوار، فتغرق في سبات عميق.

بعــد حركة جفنك تســتيقظ، فاتحــاً ذراعيك للصبــاح، مُغلقاً أبواب النــوم خلفــك، ناظراً جوارك عــلى الوجه الذي يُشــاركك الفراش؛ الوجه الذي يســتيقظ عند الغسق، ويفتح نافذته للعصافير، ولا يُفرّق بين شتاء وصيــف، ولا يترك مكاناً إلا ويفوح بعطره، يُغادر الفراش من غير التفاتة،

ويُســقي حديقة البيت، ويُجهز مائدة الفطور، ويدخل غرفتك مع بسمة تختصر العمر، ويطوف حولك كالفراشة حتى تنهض.

زوجــة لا يضيــق بها البيــت في غيابك، فتصنع فيه مــا يجعله ينبض بالحياة، من أشــجار للزينة في ساحته؛ أشــجار تُغنّي عليها العصافير كل صباح، وورود على شرفته تبعث فيــه البهجة، وروائح في مطبخه تُعجب الزوّار، وبخور على جدرانه يفوح في الأرجاء، ونظافة في كل غرفة منه، ثم تُرسل شعرها في الريح، وتسرح في شوقها إليك، بنقاء ضوئها اللين، وبراءتها التي تذوب رقة، وترتقب عودتك من خلف الزجاج.

وكلما ســئمت فتحت كتاباً تقــرأ فيه، أو فتحت نافذتهــا للهواء، أو ارتمت على الفراش وطردت ذئاب الأرق.

زوجــة تبقى عــلى عجلة من عودتــك؛ لتفتح نوافذهــا أمام وجهك، وتمســح عنه غبار الطريق، وأتعاب التواجــد خارج البيت، وتردّ البرد عن يدك، والأسى عن عينك، بنظرة حب منها، وبســمة في لحظة ســهو كأنها زهرة أمل.

وترجو التعب أن يبقى بعيداً عنك لتظلّ على آطمئنانك، وتفتح أذنها لتسمع كل أسرارك؛ أسرارك التي تُغلق عليها أبواب صدرها فلا تخرج أبداً.

تُحبــك ملء قلبها، وتُجلّك كأبيها، بها وحشــة إلى شيء منك، أي شيء كان ولــو صغير، أي هدية كانت ولو حلــوى، أي كلمة كانت ولو أحبك،

قليلك لها كثير، وصغيرك لها كبير، وحضورك معها بحضور الكل وإن غابوا، وغيابك عنها بغياب الكل وإن حضروا، ولينك معها بلين الكل وإن قسوا، وقسوتك عليها بقسوة الكل وإن لانوا، قبلتك على جبينها أمان، وحضنك لها بتحنان يجلبها إلى شــباكك حرة، ولأول مرة؛ حرة تســقط وحدها في الشباك!

❋❋❋❋

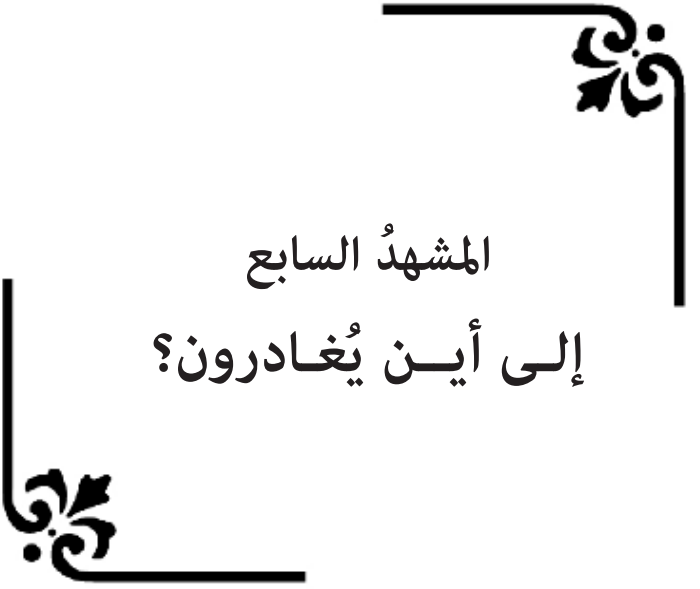

المشهدُ السابع

إلـى أيــن يُغـادرون؟

"لا ترحلوا بعيداً، عُودوا غداً أو بعد غد"

يســتيقظ الرحيل من نومه، ويفتح النافذة، ويسمح لنفسه بالدخول، تاركاً خلفه الشــمس باهتة، والسماء كعين الأعمى، والأرض فلاة، والبيتُ يطير بلا أجنحة بدون ماسته وظلّه -أي أمك وأبوك-.

والقلب المسكين لم ينتبه يوماً إلى أن شيئاً سيُبعثر دفاتره، ويحرقها بنار الفراق، ويترك رمادها عــلى الأرض ليبعث فيه الحسرة، وينثرها في الهواء لكيلا يبقى منها شيء!

الرحيــل الذي يأتي ليُغادر بأرواح الذين ما عادوا قادرين على الوقوف في عــراء الحياة، المُدركين بأنهم لا جــدوى لهم هنا، وأن أهليهم ما عادوا يحتاجون إليهم ولا الغرباء، ولا طيبو القلوب ولا الأشرار.

يُغادرون بــلا وداع، ودون أن تدمع عيونهم كما كان من قبل، عندما يســتمعون إلى ســيرته، ينظرون نحو جدار يرتفع بينهم وبين العالم، وهم عــلى عجلة من مجيء الموت؛ ليصبحوا صامتين إلى الأبد. الموت الذي يأتي على حين غفلة فيغادر بهم كلمعة برق لئلا يندموا.

يخطفهم من ســفينة الأمــاني التي لم يصعدوا عليها، ويســير بهم بلا بهجــة، وبــلا ضوضاء، وبلا حنــين إلى الماضي، وبلا شــوق إلى الأهل، نحو الأرض التي تفتح فمها لتبلعهم.

كانوا يتمنون السفر مراراً إلى بلادٍ يُقيمون فيها شعائر الله كلما غلبهم الشــوق، وحال القدرة على ذلك، والوقوف بين يديه تعظيماً، والســجود

على أرضه تحقيراً من نفوسهم، ورجاءً منهم يطلبون به العفو، وغرقوا في بحر الأمنيات بعد أن طال عليهم العمر، وتمكّن منهم الضعف بعد القوة، وقُطعت عنهم الأنفاس، وحلّت نهاية صحيفة الأعمال، وقضي أمر الحياة.

المُغـادرون إلى القبور يحملون المصابيح إلى الأشـجار التي تُظلّل على المـوتى، وتصعد أرواحهم على الكفن لتُلقي السـلام على جيرانهم الجدد، وعالمهـم الصامت، وهم يحملون الكثير من الزهور التي جلبوها من عالم الأحيـاء؛ الأحياء الذين التفّوا حول أجسـادهم، وأودعوهم تلك الزهور، وطلبوا منهم أن يُسلّموها إلى الأقارب والأحباب، دون أن يتفكّروا في شيء، وهو كيف لهؤلاء الموتى أن يحملوا تلك الزهور بلا يدين؟!!!

المـوتى الذين لو كان لهم الكلام، لأخبروك عن ما أعدّه الله للصالحين من روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم، ولأخبروك عن عمق القبر وظلمته، وشـدة وحشـته، وأن الليلة الأولى فيه لهي الحاسمة، والأسئلة التي فيه لهي الفاصلة بين مكانين، فإما ترى مكانك في جنان فسيحة، وإما ترى نفسك في نيران ملتهبة، وأنك ستصبح هنا وحيداً تماماً، لا ترافقك إلا أعمالك، ويشـهد عليك جسـدك، حتى تكون في نعيم مؤبد، أو تكون في عذاب شديد.

يغـادرون الحياة دون أن يُغادروا منك، يتركون خلفهم كرسـياً كانوا يجلسون عليه، ووروداً كانوا يهتمون بها، ومصحفاً كانوا يفتحونه، وسجادة

صلاة كانوا يُصلون عليها، وعباءات كانوا يلبسونها، وذكريات في كل أركان البيت، ودُعابات كانوا يُطلقونها، وحكايات عاشوها بكل المشاعر، وصوراً التقطوها لأنفسهم؛ لكيلا يقعوا في دائرة النسيان، وعلّقوها على الجدران قبل رحيلهم؛ صورهم التي لا تحتاج إلى وضعها على الجدران لكي تتذكّر؛ لأنها منقوشة على جدران قلبك.

تنتظــر عودتهم أمام الباب، وقلبك واجف من نظرات الوداع، والعالم حولك رغم الزحام فارغ، ورغم الوحدة ملئ بالوجوه التي تراها، فتســند رأسك على زوجك، وتخبرها بأنهم كانوا آخر العظام الباقية، وباب الرحمة الوليف، وآخر الشــموع التي تكتب على ضوئها، وأنهم ما ناموا يوماً وبك وجع، فلماذا ينامون وفي قلبك كل هذا الألم؟!!

****

في البيت القديم، تسمع صوت طفل يقرأ القرآن على حجر أمه، وتسمع وقع أقدامه على الأرض كأنّ له ســاقين من خشــب، وتراه في الشــبابيك القديمة يُدلدل رجليه ويُداعب العصافير، وتراه يحسب الخطوات بين كل غرفة وأخرى، وتراه يقف أمام الأبواب يحســب طوله، وأمام المرآة يتفقّد وجهه، وتُشاهد من قريب هذا الطفل الذي كنته.

وترى صبياً يدخل من الباب، ملابســه مبلّلة بالتراب، جاء من الشارع؛ لأن عصافير بطنــه تزقزق، فيملأ معدته ويعود إليه، قبل أن يلاحظ أهل البيت تواجده فيه.

وتجلس أمام عتبات البيت، وترى شــاباً يقف أمامه، يُمشّــط شــعره، ويضع العطر، ويســند حقيبة ســفره بأقدامه، ويتقدّم إلى الداخل نافضاً عنه جلبــة التفكير، وجحيم الجهل، وصقيع الغربة، وجالباً معه ســكون الدراويش، ونعيم العلم، ودفء اللقاء.

وترى رجلاً يقف أمام المرآة يتأهّب لعرسه، يرتدي بزّة رسمية، وقميصاً أبيضَ بأزرارٍ سوداء، وربطة عنق سوداء، وحذاء أسود.

يقفُ مُتخيّلاً عيون الناس حتى يخرج إلى قلب الحدث، فتشاهد فرحة أمه من بعيــد، ودموع الفرحة على خدّها زهور، وترأف بحال خدّه من السيّدات المتواجدات خارج الشــقّة، اللاتي آنتظرن خروجه بفارغ الصبر، وآستعملن خدّه كما يستعملون المنشفة، والتففن حوله يُردّدن الأغاني القديمة.

ثم تشــاهد خروجه إلى الشــارع، وعيون أبيه ترافقه بحب، وأحضانه تحميه من العيون، وبصمات الأهل والأصحاب على خدّه ليست بقبلات أبداً.

وتراه يركب ســيارة الزفاف، والحرّ يشتدّ عليه داخلها، حتى يصل إلى العروس؛ العروس التي تبدو كالملائكة في فستانها الأبيض، رغم أنها تتحرك فيه ببطء كالســلحفاة، وتحتاج إلى مســاعدة من إحــدى صديقاتها من الخلف.

وتشاهد كيف يستعمله الأصحاب كما يشاءون كأنه دمية، ويطوفون العــرس من حولــه لعلهم يجدون جميلــة الجميلات؛ الأغبيــاء الذين لا يزالون أغبياء؛ لأن جميلة الجميــلات بجواره، لكنها مُجهدة قليلاً في تلك السفينة التي تلبسها.

وتــرى أيام هــذا الرجل الذي كان أنتَ تمرّ كلمــح البصر، حتى تُفتح أمامــه نوافذ الرحيل، فتغيب عنه أنــوار الأبوين واحداً تلو الآخر، ويبقى فرداً بلا أصول، كأشــجارٍ لا جذور لها، كأنــه يتيم بلا مأوى، كأنه يتيم له مأوى.

وتبقى تُشــاهد ســيّدي شريط حياتك وهو يمرّ أمامك، وتمســح عن عينيــك ما تجمّد من زبــد، وينام بداخلك دخيل خامــل، وتخمد أدخنة الذكرى، وينطفئ لهيب الشوق، وتدوم صلوات القلب.

فتناجــي الله وتأوي إليه قائلاً: يا الله، وقعت في حفرة خوف، ونظرتي مكســورة كالزجاج، وروحي من جروحها ســاهرة، نار الألم فيها متوهجة كشــمس، وماء البهجة أشد عتمة من الليل حين يحل، يا ربي رقبتي أرفع من الشــعرة تحت ســيف قضائك، وقلبي تُطفئه دموع العين إن هاجت فيه الحِمَمْ.

****

لا يراك أحد كأنك بخار يتنفسونه، يصطدمون بك دون أن يشعروا، يجلسون على المقعد الذي تجلس عليه دون أن ينتبهوا، لا يسمعون صوتك كأنهم بلا آذان، وكأنك بلا لسان، فتعود مهموماً كنبي الله يونس، وتنامُ على راحة زوجتك، مُتحدّثاً معها عن خوفك، فتقول لها: كنت أخاف أن يدخل حياتي أحد ويرحل عنها، فأفقد شيئاً ما في داخلي، وأخاف أن يدخل حياتي أحد ويبقى فيها، وأبقى في حيرة من أمري، ولا يدور في رأسي إلا سؤالٌ واحدٌ وهو متى يرحل؟

وكنتُ أقف على مشارف السنين، أنثُر الكلمات على الباقين معي، وعلى القادمين إليّ، وأقول وأنا مُقبل عليهم: أجزاءٌ من قلبي للبيع، هل ثمّة مشترى؟

هل ثمّة إنسان دائم لا يرحل، لا يغيب، لا يغرب؟

خُذ هذا الجزء من قلبي تحتمي فيه من برد الليالي، وهذا الجزء تغفو فيه متى شئت، وهذا الجزء تعويضاً عن فقدك للحب، وافتقادك للحنان، وهذا الجزء جزاء صداقتنا العميقة، وهذا الجزء تخلع فيه أحزانك، وهذا الجزء للعشق الطاهر، لكن لديّ طلب واحد لإتمام البيع، طلب واحد مقابل أن أعطيك جزءاً من قلبي، وهو أن لا ترحل!!

وأن لا تترك يديَ إذا صارت بيضاء كالكفن نتيجة البرد، وأن لا تقطع السُبُل التي تقودني إليك كأني بلا قدمين، وأن تفتح أحضانك كلّما أردتُ أن

آوي إليك كالوطن، وأن أعشق الحب مع كل لحظة تمر معك.

فهل تقبل؟

تأخذ جزءاً من قلبي لكن لا ترحل.

فتّشبك يدها في يدك، وتسمعك حتى تُفضي بكل الأسرار، وتمسح عن وجهك هذا الحشد من الهموم، وتومئ إلى صدرك، وتتهامس معك بأنها هنا، في أشد الأوقات حزناً قبل أوقات السعادة، وفي لقاءات الصمت قبل لقاءات الحديث، وفي الليالي الباردة قبل ليالي الدفء، وفي قسوة الأيام قبل لينها، ورقّة الهمّة قبل قوّتها، وقلّة الزاد قبل كثرته، وضيق العيش قبل سعته، وكسرة الخاطر قبل جبره، وفي تعب السعي قبل الوصول.

حتى وإن طرقت نافذة الخارجين من النوم، نافذة الداخلين إلى النوم، ونال منها السهر بجوارك، ستبقى معك حتى تخرج عصافير الذكرى من سجنها في صدرك، وتتقدّم صوب ما تشتهي.

فتُجاهد ألا تضيع سيّدي تحت سُحُب البيت المقفرة، وألا يُحاصرك الحزن من كل الجهات، وألا يجتاحك برقٌ من حنين الروح، وألا تحمل الروح أي خوف إليك، وألا تعيش وفي داخلك هذا الأنين، وألا يُبلّل مائدتك مطر الغائبين؛ مائدتك التي كانت مكتظّة، وأصبح عليها ظل رجل وأنثى.

وتضع نصب عينيك، أحبابك الخلّص، وتسمع أصواتهم، وتتفقّد وجوههم كل حين وآخر، وتتوقف عن تعقّب أثر الخيول التي حملت

على ظهورها أشــخاصاً قد رحلــوا، وتروي قبور أحبابــك بالدعاء، وتهتم بالزهور في بســتان بيتك، وترعى الزهور في بســتان قلبك، وتُعيد ترتيب اهتماماتك؛ لكيلا تقع في حُفر الســنين، ولتُعطي كل ذي حق حقه، وأهم صاحب لهذا الحق هو أنت!

****

تأتيــك بعد كل محنــة منحة، فتُبشر بمولود في شــهوره الأولى، فتُهلل وتكبر، وتصول وتجول، وتطير فرحاً، وتسير بلا وجهة، وتدور حول نفسك كالقمــر، وتعبث بالأشــياء من حولك، وتريد الخــروج إلى الشرفة؛ لتُبشر الجيران وجيرانهم، وجــيران جيرانهم، لكن زوجتك تقف حائلاً بينك وبين كل هذا الجنون، قائلة: كفى جنوناً، عد إلى وعيك، لا زلنا في الأشهر الأولى.

ويأتي وقــت أصالتك، والبرهان على أصلية حبك، فتشــد حبال الصلة بينكما، وتُرخي حبال الخروج من البيت، وتوفر لها الراحة قدر ما أمكن، وتصاحبها مع كل ألم تعاني منه، وتســندها مع كل دوار أو ثقل في الرأس، وتتحمّــل تقلباتهــا المزاجيّة، وتغيراتهــا الهرمونية، وتحمــل عنها أحمال البيت، وترعاها كأم؛ لأن طفلك الذي ينمو بداخلها يتسبب لها بكثيرٍ من الإرهاق والتعب.

ولا تســأم من ســيدتك الحُبْلى، التي تحمل في أحشائها جنينك الذي يتمدّد لوقت طويل في الداخل، إذا طلبت منك شيئاً لتأكله بعد منتصف

الليل، وتدفع بك للذهاب لتلبية رغبتها الغامضة، وهذا التوق الشـديد، والرغبة الجارفة، والشـعور غـير المفتعل لهذا الطعـام، أو هذه الفاكهة خلال هذا الوقت، وتصبر سـيدي على هذا الإحسـاس الذي يراودها كل فترة وأخرى، وتحتسب كل هذا، وتسعى في العراء حتى تعود بما اشتهت.

ويا ويلك إن اشـتهت فاكهـة من فصل الصيف في فصل الشـتاء، أو وجبة من الشـارع ووجدت المطاعم مغلقة، أو بعض ألواح الشـوكولاته، وكل النـاس نيام، ويبدأ ذهنها يُردد الطلب، وأنت في حيرة من أمرك، من أين تأتي بهذا الطلب في هذا الفصل، أو في هذا الوقت؟

وبمن تستغيث؟

وماذا تفعل مع حدّتها التي تتزايد شـيئاً فشـيئاً حتى تُصبح هوسـاً يصعب عليك مقاومته؟

ولا تغضب منها إذا نفرت منك ومن رائحتك ورائحة جسـدك وفمك، مـن غير تمثيل منهـا ولا دلال، ولا علاقة لذلك بعلاقـة الحب التي بينك وبينهـا؛ لأن كل هذا فعل الهرمونات التي تتغير مع الحمل ولا تسـتطيع التعامل معها، كما تفقد رغبتها إليك، وتعيش ما بين نوم متقطع، وغثيان متكرر، وآلام مختلفة، وخوف من الإجهاض.

وتكتسـب وزنـاً إضافياً؛ لأنها حملـت داخلها جسـداً، يتمدّد بخفة الفراشـات. المرأة التي أوصلتك إلى مائها وحملت بضعة منك، وشاركتك

فراش الزوجيّة تحت علاقة مقدسة أصبحتَ بها أقوى، ولن تبقى بعدها فرداً، تجتاز معك هذه الأيام ببطء شديد.

فتكون لها الصاحب الذي لا تُغيره الحياة، ولا يَصدأ من عامل الزمن، ولا يهدأ له بال حتى يستردّ صاحبه العافية، وتكون لها الأم التي تمسح عنها عناء التعب، وتسهر جوارها مُطلقةً الدعابات، وتسخر من ضعفها بأسلوب هزليّ، وتحوّل الكثير من الجلسات إلى كوميديا لا محدودة، وتكون لها الزوج الأصيل، الذي بدأ معها الحياة بتقوى، وشاب معها في الصعاب، وشهد لها بالصلاح، وأذهب عنها الحَزَن، وجاءها بكل ما حمل في قلبه من لين، وكان بها رحيماً، رقيق الطبع، حسن المعاشرة، وجميل الخصال لا تهون عليه العشرة.

إن رأتك طاب لها الخاطر، وإن سمعتك شجيَ لك الخافق، هجرت العالم لتكون معك، وهاجرت بكلها إلى كلك، لتزرع معك جذور دعوتك، وترسم الطريق لنسلك، وتضحك معك في طرق الحياة، وترتدي معك ثياب الأحلام التي تناسب عقلك وشخصك، وتبادلك الحب حتى تهرمان معاً إلى الأبد.

تسهر معها لأشهر، تُدخل فيهنّ على قلبها الدفء والنور، وتفتح لها النوافذ ليتجدّد الهواء، ولتنعم بالشمس والليل والنجوم والقمر والحرية، ولتجد الملاذ من الضغط والخوف والقلق من هذا الشعور الحديث عليها،

حتــى ترحل عنها تقلّبات الشــهور الأولى، وتعود إليهــا رغبات أنقى من الفجــر، فتتذوق معها لــذة القرب بملء بهجتها، وتمــر يدك على وجهها الجميل النائم، وتتعلق عينيك ببراءةٍ بيضاء تهف من شــفاهها، وتتشابك روحــك مع رائحة الجســد؛ الرائحــة التي تبعث نشــوة الحب، وتضمها كجنــاح طائر يضم وليده، وتقضــم خدّها بأســنانك، وتغازلها بكلماتك، وتفقدان معاً كل شيء، وتصبحان كجسد واحد، على فراش واحد.

****

المشهدُ الثامن

مصبـاحٌ لا ينطفئ

" الأصالة هي: رجلٌ يفنى في خدمة أهله"

ترحل الأيام، ويكبر بطن زوجتك كالبالون، وتقف خلفها وهي تشاهد نفسها أمام المرآة بجسد مُترهّل، ووزن زائد، وبريق جمالها يذهب مع تقدّم الحمل، فتشدّ من أزرها، وتخبرها أن كل هذا سيمضي ويصبح وردة في كتاب، وأنها ستحمل المصابيح والأغصان إلى هذه الأيام بعد عمر طويل، وتتذكرها معك وتضحك، وتروي هذه الحكاية، وتصف هذه المشاعر، وتعرض تلك الصور على صغاركم.

ويحلّ الهدوء بينكما على مائدة الليل، ويغيب عنها الألم الذي بلا اسم، حتى تجيئها ركلة من صغيرك على حين غفلة منها، فتشهق شَهقة من فاجئه حدوث شيء، وتنظر إليك والدهشة تقفز من عينيها، وتصبح الصورة خرساء -كعادتها- ويلمس وجهها ضوء جديد، وتضع يدها على بطنها قائلة: إنه يركُل بطني، ويتقلّب فيها!

ويُكرر ركلها تحت دفء نظرتك، وتبقى في هدوئك مالح، حتى تتقدم نحوها، وتضع يدك على بطنها، وتقف في ظلّ حَيرة منك، ماذا عليك أن تفعل إذا ما فاجأك صغيرك بركلة؟

وفور أن يفعل... تسقط على الأرض من شدة توهجك؛ لتضع رأسك على بطنها، وتنتظر ركلته الأُخرى، فيعاود الركل وأنت تُصغي، وهي تضحك، حتى تهدأ روحه ويتوقف، فتعانقها عناق العائدين من السفر، وتنامان بعد أن طردت الفرحة من عيونكما الأرق.

تنــزل أدراج العتمة بحثاً عن مصباح، بعد أن محا ضوء النهار الأرقام والعقارب من ســاعة الجدار، وترفع ستائر النوم عن الجفون، وتمضي نحو الخارج بنشــاطٍ وحماسٍ، كأنّ ركلات صغيرك تدفعك نحو الأمام، وتنفعك في طريق الرزق، فتسرح في الملكوت نازعاً عنك طوق الحياة، وزارعاً فيك نبــات التقوى، وتســعى في كل ألوان النهار التي تتغــير، وترجع في الليل مُصغياً إلى ركلاته، والقشــعريرة تعتريــك، وترتمي على السرير، حتى تنام ناسياً أن تغمض عينيك!

بريق يديها يُضيء لك الطريق، ويفســح من أمامك العتمة، ويُشــعل المصابيح على جانبيه، وركلات صغيرك تمدك بالقوة، كأنك في مشيك تُحلق على تلك الســحب، وتركض وسط ذلك الزحام، وتَقلِب معالم الكسل رأساً على عقب، وترفع لواء الأسرة التي تجمع لها ما يكفيها للحياة؛ لكي تُشرق أمامها شموس الأيام فلا تغرب أبداً.

وترســم ملامح صغيرك كلّ صباح على جدارٍ أبيــض، أو على مرآةٍ نام عليها البخار، أو على نافذةٍ سقط عليها الندى، أو على ورقةٍ مفتوحةٍ على سطح المكتب، أو في خيالك وأنت جالس في المواصلات، أو في أحلامك كل ليلة.

وتتخيّله يطرق باباً مفتوحاً، أو ينهض من مهده الصغير بجوار سريرك، أو ينــام على يديــك، أو يهرول إليك عند مجيئك من الخارج، أو تســمع صوته وهو يناديك بأبي، أو تشم رائحته التي ولد بها، أو تضمه إلى صدرك كأنه قطعة منك وهو كذلك.

وترحل الأيام... لا همّ إن زارك فيها أرق، وسهرت لليال، وتتحمّل مهما منعك الألم عن النُّهوض، ومهما اشــتدت عزلتك هنا وزاد الملل، وتسلّلت إليك الأفكار الجارحة، والصمت العليل.

ولا تخــرج إلى المقاهي هرباً مــن همومك، ولا تمشي على الأرصفة إلا ترويحاً عنك وعن زوجتك.

وتظــل تنتظر هذا اليوم حتى يجــيء، فلا تعود بعده فرداً، ولا ترجع ويداك فارغتان، وتودّ لو تغمض عينيك وتفتحهما على هذا اليوم، الشديد البياض، كســحابةٍ تحمل الخير لأرض يابسة، وعلى الخبر الذي يملأ روحك فرحة؛ جاءك مولودٌ يُشبهك!

****

بضوء خفيــف على زوجتك، وصخبٍ أليف منها، تدفع به صغيرك إلى الخارج، تُشــاهد المنظر مــن خلف الزجاج، والعرق يُلجم رأســك، كأنك الذي تلد وليست زوجتك التي تفعل، وتُناجي الله بأسمائه وصفاته، حتى يخــرج صغيرك إلى العالم، فاتحاً فمــه لأول مرة وهو يصرخ، فتدفع الباب وتنطلق نحوه، وتضمه إليك، وتتنفّس عبقه، وتقبل رأســه ويديه، وتطلق الأذان في أذنه اليمنى، وتُقيم الصلاة في أذنه اليسرى، وتُقدّمه إلى زوجتك، واضعاً قُبلة على جبينها، وماســحاً عن وجههــا التعب، وناظراً معها إليه، وقائلاً: ها قد أتى ثالثنا.

تــذوب عينــاك كما يــذوب الجليــد، ولا تُجيد إلا الصمــت؛ لأنك لا تستطيع ترجمة تلك المشاعر، ولا التعبير عنها بكلمات، وصغيرك محمول على يديك، ملفوف بلحافٍ خُلِــقَ ليوم ولادته، وصامتٌ هو الآخر، ويده مقبوضة كأنه يريد أن يلكم أحداً ما، وأقدامه صغيرة بالكاد تظهر منها الأصابع.

فتُشــير إلى زوجتك التي تُراقب فرحتــك في صمت، وتنظر إليكما كما تنظــر الأمهات العجائز، اللاتي يُقدّمــن كل ما في أيديهنّ، و لا ينتظرنَ إلا رؤية السعادة على وجوه أبنائهنّ، وتقول لها: انظري!!

هذه هي الأقدام التي كانت تركل بطنك، وعشــتِ معها أياماً عسيرة كــما كنتِ تقولــين، فلو أن ركلة منهــا جاءت على وجهي مــا أثّرت فيه، فيُعطيك ركلة؛ لكي تصمت، وتنفجر السيدة في ضحك شديد، وهي تُراقب صدمة وجهك المُضحِك.

تــترك صغيرك في أحضــان أمه، وتوزّع الحلوى عــلى كل الحاضرين في المشفى، وتُهديهم الورود، ثم تفرش الأرض بسجادة الصلاة، وتُقدّس تلك اللحظات بالحمد، فَرِحاً بما آتاك الله من فضله، وشاكراً لأنعمه بعد سنوات عجاف، حلّ فيهــا الجفاف على بيتك، فتكسّرت كل الغصون، وذبلت كل الثمار، وأصبحت فرداً بلا جذور، حتى غدا بيتك يجمع بين الجمر والثلج.

ثم تمضي الســنون ويهبك الله من البنين والبنات ما يُرضيك، ويُعطيك الذريــة التي تحمل اســمك، وتحافظ على نســلك، وترعــاك حال كبرك،

وتتقوّى بهم على الدهر، وتذكُرُك بعد الموت، وبعد كل عودة من المشفى، تُقيــم الولائم على شرف وليدك الجديــد، وتُكرم ضيفك وأهلك من نعيم اللــه الذي وهبــك، وتُقدّم لهم من الخير ما يكفــي لعودتهم إلى ديارهم فرحين، راضين بحُسنِ هِبتك، وكرم ضيافتك.

وبعد أن يُغادر الناس، تقوم على السهر بجواره، فتحرّك به المهد حتى ينام، وتتأمل وجهه، وتشُــمّ رائحته حتى تنام أنت، وتســتيقظ من نومك على حين فجأة؛ لتطمئن على وضعه، وتنظر هل ينام في وضعية تناسب عمره؟ وهل جاء الغطاء على وجهه؟

وتحملــه إلى الأم حال بُكائه؛ لتُشــبعه، وتذهب إلى غرفةٍ أُخرى لتنامَ فيهــا، فتجدَ صغارك الآخرين ينامون في وضعيــاتٍ عجيبة، أحدهم يضعُ قدماً على قدمٍ، والآخر ينامُ فوقَ الوســادة، فتنظر إليهم في غيظٍ وتقول: رحم الله أباكم.

وتذهب لغرفة فتياتك؛ لترتاح فيها، وتقول هنّ الملائكة اللاتي سيرأفنَ بحــالي، وفور نومك بجوار واحدة منهنّ تجــدُ قدماً في بطنك، وقلماً على قفاك، فتنهضُ غاضباً زافراً لاعناً اليوم الذي أنجبتَ فيه.

وتجلــسُ وحيداً في صالة البيت، ليس لك مكانــاً يضمُّك، والفراغ يملأ رأســك، فتحسد الورود في مزهريتها، والعقارب في ساعتها؛ لأنّ لهم مكاناً يبيتون فيه، وتظلُّ على حالتك هذه حتى يأخذك النوم على الكرسيّ الذي

تجلــس عليــه، فتنهض من نومك وعظامُ جســدك محطمــة، كل عظمة تُفارقُ أختها.

ثــم تذهــب إلى عملك والنــوم رفيقك؛ لأن بكاء صغــارك وصراخهم ونومهم الغريب، حرمك من ســاعات نومك المفضلة، وحوّل ليلك الهادئ إلى صخب وضوضاء، حتى أغلق الجيران أبوابهم ونوافذهم، وجعلوك تنام في المواصلات، وعلى أسطح المكاتب، وعلى سجاد المسجد بعد كل صلاة.

صغــارك الذين لم يتركوا شــعرك على حاله، واســتخدموا خدّك بكثرة، ليس للتقبيل وإنما للتطبيل، وكسروا زجاجات عطرك المفضل، وتســابقوا في صالات البيت وغُرفه كأنهم خيول، وفرضوا الســلطة على أسرّة البيت، وخرقوا قوانين النوم وأوقاته، فســهروا طوال الليــل، وناموا طوال النهار، حتــى أصبح بيتــك كقاعة للأعراس؛ بيتك الــذي لم يخرج منه صوت، ولم تدخل إليه شكوى.

صغــارك الذين يكــبرون يوماً بعد يوم، ويتدافعــون إلى حضنك حال الغفوة واليقظة، والجلوس والقيام، والذهاب والمجيء، ويعودون بك إلى محطة الطفولة، فيلعبون معك حتى يخطفهم النوم في منتصف ضحكتهم، ويُغمضون عيونهم، ويغرقون خفافاً في محيطه دون أن يشعروا، ويتركون راحتهم مفتوحة، وعيونهم على نصف غِمضة، وتحرســهم ملائكة يحنون عليهم، ويُحلّق فوقهم جناح الأمومة دون أن يروه، وتتأمل ملامحهم حتى يخطفك النوم في الجوار.

ثم تتغير الآيــة فينهضون باكراً، كأنهم هم الذين يوقظون الشــمس، ويجمعون العصافير على الشــجر، ويفتحــون المنافذ للصبح؛ لكي يتنفس، ويُغلقون آبار الظلمة التي تخرج من باطن الأرض، ويقدِمون إلى فراشــك طالبــين مــن الأم أن تنهض؛ لكي تغســل وجوههم، وتُعــدّ لهم الحليب، فتضع الوســادة فوق رأسك، وتُغلق فمك على لسانك، وتأمل أن لا يقترب منــك أحدهم؛ أحدهم الذي يصعد على الوســادة فوق رأســك، ويُطلق بعض الصواريخ من مؤخرّته، ثم يقفز على جســدك، ويقضم يدك بأنيابه الصغيرة، فتنظر إليه من تحت الوســادة، وتبكي بحسرة على حالك، سائلاً إن كان الصباح على هذه الشّاكلة فلماذا يُنجب الآباء أبناء؟

ثم تسأل: ماذا حملت تلك الصواريخ؟

****

نســلك الذين تحملهم على كتفك تحت ســقف الســماء، وتطأ بهم الأرض مرات ومرات، وتعرض وجوههم على شــمس الصباح، وتسلك بهم الفجــاج، وتركض خلفهم في الحقل، وتقطــف لهم الزهور، وترمي عليهم الماء من السّــاقية، وتجلس معهم تحت ظل شجرة، وتروي لهم عن أبيك، وتخبرهم عن طفولتك، وأين كانت نشــأتك، وكيف نشــأت، وتصعد على أشــجار الفاكهة وترمي لهم الثمار، وتختبئ منهم بين ســنابل القمح، ثم تفاجئهم من الخلف، وتتســابق معهــم على من الأسرع، وتتصارع معهم

على من الأقوى، وتتحدّاهم على الذي لا يضحك إن نظر إليك، وتتحدّاهم على الذي يفعل شـيئاً، أو يقل شـيئاً يَضحك الآخرين، وتتحدّ معهم على رفع أغصان مكسـورة عن الطريق، وزرع الياسمين أمام البيت، ومساعدة الأم في المنزل.

وتسـتمع إلى كلامهـم الكثير، وأسـئلتهم التي لا نهايـة لها، وحلاوة أصواتهم في بعـض الكلمات التي تصعب عليهـم، والحروف التي تهرب من ألسنتهم، وتُنصت إلى حكاياتهم التي عاشوها في البيت أو في الشارع، والمواقف التي تسبّبت لهم بحزن أو بسعادة، وتضحك على المواقف التي يحسبون أنها مُضحكة وهي لا تحرّك فيك ساكناً، وتُصفق لهم بعد فعلهم الأشياء الحميدة، وتأخذ بيدهم إن فعلوا غيرها.

وتلهو معهم عند نسـيم الصباح وتبني لهم بيوتاً من رمال مُطلّة على بركة من ماء صافي، تجاورها بسـاتين من فواكـه وأعناب، وحدائق ذات بهجة، أرضها مفروشـة بأعشاب خضراء، وورود لها رائحة جميلة، وتنادي لهـم على العصافير كي تـأتي إلى موطنها الجديـد، وتجلس معهم كحرس على الأبواب، وسـاقٍ للحدائق، فلا تنحني زهرة أمام بيوتهم الصغيرة، ولا ينحنون ليدخلوا باباً، وتغرق بهم إلى جنون جميل.

تكبر في عيونهم مع كل يوم يرحل، وتصبح بطلهم الخاص الذي يستطيع فعل كل الأشـياء، ويحل كل المشـاكل، ويُواجـه كل المصاعب، وحبيبهم

الذي يجتمعون حوله في برد الشتاء، ويأنسون بأحاديثه، ويصعدون معه على سـطح البيت في حر الصيف، ويتأثرون بتأمّله، وإمامهم الذي يُصلّي بهـم في البيت النوافـل، فيتعلّمون منه، ومُعلمهم الناصح الذي يُشـعل أمامهـم المصابيح، فيهتدون بها، وأباهم الذي يعرف كيف ومتى يجعلهم يخافون العقاب، فيهابون منه.

وحين تأتيك الإشـارة وترى فيهم ما يُؤهلهـم لتلقّي العلم، تمشي بهم إلى أهـل القرآن ليكونوا على مركب النـور، وتترك لهم القرار إلى أي أرض سترسو مركبهم!

مركبهـم التي فـور أن تتحرك وتجـري بها الأمواج، وتعـبر بين موجٍ كالجبـال، ورياح تُسـقط النخيل ذو الأصل الثابت، وأمطار تسـقط على سـطح المركب، وتتعلّق بالثياب، وبرد يضربهـم من كل الجهات، وظلمة لا يتبـيّن فيها الخيط الأبيض من الأسـود من الفجـر، ورعدٌ وبرقٌ يضرب الأسماع والأبصار، وغربة تُعرّي الظهر من أعمدة تقف خلفه، تُوقن أنهم سـيقفون ثابتين لا يسـقطون، كالسـماء المرفوعة بلا أعمدة، ويُوجّهون المركـب، ويرفعون الشراع، غير مُبالين بما يحـدث خلفهم وأمامهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ومن فوقهم وأسفل منهم، مؤمنون بأن أقدار الله مكتوبة منذ الأزل، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، فيخوضون الأمواج رغم أن مجـال الرؤية يكاد يكون مُعدماً، مُبحرين نحو عالمهم، ومُخرجين من

أعماقهم إيماناً يمُدّهم بشعاع نور لا ينقطع، حتى يصلوا إلى المرسى.

وتُصبح مائدتك مُكتظة بالأبناء من حولك كما لم تكن من قبل، ويتساءلون عندك على من الأقرب في المنزلة، وأيّ محظوظ هذا الذي نال القرب؟

فتصمت وعلى وجهك ابتسامة صفراء، حتى يُنهكهم التفكير، ويُثقلهم القلق كالذي يرتدي ثياباً كثيرة ووقع في الماء، ويُرهقهم الإنتظار بلهفة، وتمتلئ أعينهم بالتساؤل، يريدون أن يعرفوا من يسكن في صدرك؟

وبعد أن تجمع أيديهم، وتضعها جميعاً فوق بعضها البعض، وتُشاهد نضجهم في محطة الصبا، التي ينطلقون بعدها إلى العالم الواسع، حيث يبني كل واحد منهم أُسس حياته، ويستقرّ في زاوية من زوايا العالم.

تنظر لعيونهم وتُطيل، ثم تقول لهم: جئتم من نبعي، ومن رحم الأم، ووقفت أمامكم درعاً، وشربت عن قلوبكم كؤوساً من الهم، ووقفت في العراء ليالي البرد؛ لكيلا تُصيبكم رعشة، ومشيت في القيلولة لأعوام؛ لكيلا تُصيبكم لسعة من شمس الدنيا، ووهبت كل واحد منكم مقاماً في قلبي لا يزيد عن أخيه، وقسّمت بينكم حبي، فأنتم بضعة مني، وبكم أتقوّى، وأحمي ظهري من الغدر.

عدوني أن لا تذهبوا بعيداً، وأن لا يترك أحدكم الآخر في هذه الحكاية، وأن لا يُفلت يد أخيه لهذا البرد.

لا تذهبوا بعيداً، كي لا يجلِدكُم الشــوق، وتشوككم الحياة، وتشتكيكم الطرق من الجفاء.

لا تذهبوا بعيداً، كي لا تبقوا فرادى تحت ســحائب الســماء، وغمائم الحزن، وحزنكم ينقر هنا في القلب.

****

المشهدُ التاسع
مَـوْعـدُ حُـبّ

تتذكّر مع أبنائك كل ما عانيت في صغرك، يوم نجاتك من الغرق حين نزلت النهر أول مرة، وسقوطك في الوحل وأنت تركض خوفاً من نباح الكلاب، وفجعتك من خيال الملابس المعلّقة وراء الباب، ولسعتك من الشاي الساخن، وعودتك إلى البيت وأنت مخدوش في وجهك وثيابك ممزّقة، وإصاباتك المتكررة بالحمّى، وعناءك مع جهازك المناعي، وضربك على أظافر اليد، وعلى باطن القدم.

وتُشاهد كل العناء الذي مرّوا به في محطات الصغر، التي يحسبون أنها فاضت بهم حُزناً، وأنهم عندما يكبرون سيجدون من يحنو عليهم، وسيجدون مكاناً خالياً من الصراع على الأقوى، ومن اللهث وراء المال، وسينامون نوم السعداء الهانئين بحياة خالية من صخب الأسئلة، وضوضاء التفكير، كأن هناك أناساً يتحدّثون في آذانهم، ولا يخرجون من رؤوسهم، وسيركضون خلف الأحلام في طرق ممهدة لا حُفر فيها، ولا زحام، ولا وحل، ولا أحجار، ولا شمسَ تُلجمهم بالعرق، ولا ليلَ يعميهم بالظلام!

وتتركهم لفضيلة التفاؤل وتحثّهم عليها؛ لأن أرواحهم التي على الفطرة كنجوم من سماء الليل مُلقاة على أرض عشبية.

وتُحوّل ليلهم إلى موعد حب من نوع فريد، فيه ترابط مختلف، أقرب ما يكون إلى القلب، ومتنزّه عن أشغال النهار، وطغيان الحياة، ومُقبل نحو سعادة الذاكرة، وضحك الشفاه، وسرور القلب، ودموع الفرح،

وتنتشر في الوسـط رائحة النعناع وهي تصعد من بخار الشـاي، وتفيض الطبيعـة بهواء صافٍ مـن نوافذ البيت، فتصبح تلك اللحظات قدسـية، وتصرف الغربة عـن أرجاء البيت، فلا يبدو البيت غريباً أبداً في وجودك، ولا يغرق تحت ثقل الصمت المخيف.

وتُشعل لهم أصابعك العشرة بالشمع فلا تقترب الظلمة، وتُناجي الله في دمعك فلا تقترب الغُمّة، وتشـعر في بيتك كأنك ملك على عرشه، يمشي عـلى الماء، وينام على ألين الفُرُش، ويُعانق أجمل امرأة في المملكة، ويبدو بيتـك في مرآة عينك كأنه قصر، رغم بسـاطته، فلا تعـرف عيونك النوم خارجه، ولا تجد السلام في غيره، ولا تشبع على أي مائدة أخرى، كما تفعل المائدة العامرة بسعيك، وجهدك المشكور.

وتُلبّـي حاجيات البيت، فتنفق من غير بخل منك ولا إسراف، وترعى مـن غير جفاء ولا قسـوة، وتُعطي دون تفضيل بـين جنس وآخر، وتترك وراءك ضوء الخطى، فيراك الأهل القدوة، ويمشون خلفك يُقلّدون صُنعك، على طريقتهم الخاصة، فيفتح كل واحد منهم نافذة الأحلام التي يشتهيها، ويختار الأرض التي يبتغي العيش عليها، وينطلق من دون توقف، ويبقى بعينك تراقبه من الأفق.

ولا يكون بيتك بيتاً إلا إذا رُزقت فيه بجنة تنظر إليها كل صبح ومساء، ويـورق في يديها الحب واللين، ويخرج مـن قلبها ينابيع الرحمة، ويظهر

في وجههـا نور ملاك، ويخضر في حضنها كل مهموم، ويجبر كل مكسـور، ويعود إلى قيد الحياة كل ذابل، ويسقط حيث تتواجد هي الأفق الجريح، ويصعد حيث تتواجد الأفق المنير، فلا يضل تحت سـقفها إلا شقيّ؛ جنة تجعل للبيت معنى، وما معنى البيت إن خلا من جنة الفتيات؟

****

ورقة ضوئك الأبيض، ورِقّة قلبك اللين، وشمعة بيتك البسيط، وزهرتك التي يفوح منها العشـق، وتجد منها الشـفقة على جفـاء الحياة، وتروح إليهـا بالحنين، فتصرف عن داخلك الأنين، تتجـلّى في مهابة الحب، وتترك الأكاليـل، وتحرث عشـب الوهم، وتحرس الورود التـي تخرج من باطن الصعاب، وتمسح الأحزان المتربة عنك، وتملأ مقلة عينيك، فلا يملؤها الدمع.

سـحابة ممطرة تحمل الخير، وقطرات مطر يُسـتجاب معها الدعاء، وبركات من السماء تبعث الإشارات، ونجمة تُضيء ظلمة الوديان، وكوكب يـدور حول سـعادة بيته، وريح تحمـل البُشرى، وهـدوء يجلب الخير، وشـجرة تظلل على من لا ظلّ له، وظـل لا يفارق، ووجه ملائكي خالص، وضفائر مجدولة، وعيونٌ نظراتها تصرف عنك طيور الأسى، ولسـان يقطر بعـذب الكلام، وأيد تعـرف منها الطريق إلى البيـت، ورائحة تتبع أثرها فتجد أن خروجها من بئر الروح.

مرآة صافية ترى فيها الأيام، ومرارة حلوة لاذعة لا تسأم منها، وفاكهة

الصيف في فصل الشـــتاء، وفاكهة الشتاء في فصل الصيف، إن مرّت تركت فيــك أثراً، وزرعت الورود في وجهك، وإن أحبتك صنعت لك من شــعرك ضفيرة، وخضّبت شــفاهك بأحمر الشــفاه، وما قبلــت بالجلوس إلا على كتفك، أو على أقدامك، وما قبلت النوم إلا على كفّك أو بين ضلوع صدرك.

لها في كل ركن مكان، ولها في كل مكان مكانة، تتّســع لأجلها الأماكن الضيّقة، وتضيق لغيرتها الأماكن الواسعة، ويغيب معها الصمت، ويرافقها الحديث، فتصعد كالموج في النبرة، وتهبط كالناي، وتجيد العزف على أوتار المشــاعر، حتى تصل إلى المبتغى؛ وصولاً خفيفاً له لذّة، ترتخي أمامه كما ترتخي في الماء، وتفرش لها الأرض بما تبتغي.

كائن البيت الذي يحتكر الجمال، وكل الدلال، وســحر الكمال، والطلة الفريــدة، والحلة الأنيقة، فتظهر في أبهــى الصور، وتصل إلى كل القلوب، وتحل على المســاء كما تحل النجوم على الســماء، وتــشرق في النهار كما تشرق الشــمس، ولا تغيب عن البيت كثيراً، وتعود إليه بخفّة، وفي ثيابها من العفّة ما يكفي لتكون آية.

فتاة تشم حرائق وجدانك فتجلب لك الماء لتطفئها، وتُحرّر ثيابك من الدخان بعد أن تغسلها، وتمنع عنك الظمأ حال نومك، فتترك لك كوباً من الماء كل ليلة، وتفك عنك العقد التي وضعتها الحياة على عنقك، وتشــير إلى إخوانها لئلا يُحدثوا صوتاً؛ لأن والدهم عاد مرهقاً من العمل.

تقــوم بدور الأم رغم صغر ســنها، وتقف أمــام حنانها مراتٍ ومراتٍ، حنانهــا الذي لا مثيل له، وتتعجّب أمام هذا القدر الهائل من المشــاعر، والقدر الهائل من البراءة، وأمام خفّتها على الروح؛ خفّتها التي تُنذر بأنها تنتمي لطيور السماء.

فتاة تضمّها إلى صدرك كأغلى قطعة منك، وجانبك الأبيض كالسحب، وقمــرك الذي ترتقب ظهوره في الأفق، وملجأك الذي يغمرك من الصخب والهوى والوحدة الحاشدة.

فتــاة تترك لها عــلى باب غرفتها كل صباح وردة، وعــلى جبينها قُبلة، وتدنــو منها كأقرب صديق، فتلقفها من المنــافي، وتبتعد بها عن الدخان الكثيــف، وتحميها من الذئاب، وترعاها من الحزن، وتُغذّي قلبها بالكثير من المشاعر، فترى نفسها فيك، وترى نفسك فيها.

وتعيــش في رغد من العيش مرفّهــاً، وفي راحة عن الحركة، وفي نعومة جــو؛ لأن في بيتك فتاة، خرجت من بين الصلب، وســكنت وراء الترائب؛ فتاة ستجعل الوفود تأتي على دارك ليلاً ونهاراً، ولم لا؟

وهي فتاة قلبك المدلّلة.

****

أبنــاؤك الذين ورثــوا ملامحك، ورَثَوك بعد كل ملحمــة انتصروا فيها على الحياة، وطاردوا أحلامهم خارج المنزل، وطردوا اليأس من صدورهم،

وطاروا فوقها كالنسور حتى اصطادوها بمخالبهم، ثم عادوا إلى مائدتك عودة الأحرار، وشبعوا منها، وأطفئوا نار الشوق في قلبك، وأوقدوا موقدك بسعيهم الذي آمنت أنه لن يتوقف.

يخرجون من ظلك واحداً تلو الآخر، ينطلقون كالسهام كلٌّ إلى هدفه، يُصيبون تارة، وتارةً يُخطئون، لكنهم لا يعودون إلا بعد تصحيح الخطأ.

تنتظر مجيئهم من محطّات السفر عندما يغيب الشفق أو ينجلي الليل، وتتفقّد موقف العربات، وتنظر إلى نهاية الطرق حتى يُصيبك اليأس وترجع إلى بيتك، واضعاً يدك خلف ظهرك، ورأسك نحو الأرض، وتذهب إلى غرفهم الخاصة، وتنام على وسائدهم لعلها تُذهب الوحشة التي ملأتك، حتى بدوت ككأسٍ مملوءٍ على مائدة فارغة.

تنتظر عودتهم؛ لأنك تخشى سقوطهم دونك، أو سقوطك دونهم، أو موتك في معطفك الثقيل وقلبك بارد، وعقلك شارد في التفكير فيهم، تُرى كيف أصبح صغارك وتُرى كيف أمسوا في بلادٍ بعيدة؟

هل وجدوا ضالتهم أم فقدوها؟

وهل ثبتوا على قِيَمِهِم أم غيّرتهم المدائن؟

وهل تذكّروا وجودك أم نسوه؟

صغارك الذين كبروا تحت ضوء الشمس، وقاموا مُبكّراً في برد الشتاء قبل المواعيد، وانتظروا دَورهم في الصف، وأودعوا أمرهم للسماء،

وودّعوك باســمين، راسمين بأفواههم بســمات تنتمي إليك، كأنها اقتباس من فمك، كأنها التماس مُقدّم؛ سامحنا يا أبي.

لا يُشــاهدون رعشة أصابعك؛ لأنك تقف كالجبل، وردةُ فعلك تُوحي بالثبات، يَحسبون أن الأمر هيّنا على قلبك، أن يغتربوا لأجل فرصة للحياة الكريمــة، ويتركوا البيت فارغاً، وكذا المائدة، ويبقون فُرادى في ديارٍ غريبة تملؤهــا الفتن، بعيدون عن عينك كل البعد، قريبون إلى قلبك كل القرب، ما هو بالأمر الهيّن أبداً، يحسبونه هيّناً وهو عندك عظيم.

لم تجد شيئاً تُواسي قلبك به أيام غُربتهم إلا الإيمان بعودتهم.

الإيمــان الذي يصنــع من قلبك خيمــة على عتبتها كفــوف كالموائد، ونوافذ للأحزان، وعلى أرضها عُشــب للأقدام العارية، ووســائد للمتعبين، وفي أحضانها بئر للمســافرين بــلا زاد، وزهور للناظريــن برحمة، وكنوز للمتأملين في ملكوت الله الواســع، الناجين مــن كل الحروب، الآمنين من كل المخاوف.

أيام غُربتهم الطويلة التي تغدو فيها وحيداً مع رفيقة دربك الأصيلة، التــي كنت صريحاً معها وشــفّافاً كماء العين، واضحاً وضوح الشــمس في زهوهــا، لا تُرتّب حديثاً ولا تنتقي الكلمات، وكنت تخلع أحزانك، وترمها بعيداً قبل أن تقترب منها، كي تُقابل وجهها بشــوق العائدين من السفر، وتراقبها كأنك لم ترها منذ زمن بعيد، وتتفقّد ملامحها البريئة التي غيّرتها

الملاحم والشـدائد، وترقب جلوسها حتى تنام على راحتها، مطمئناً كأنك وليدهـا الأول، الذي أتى بعد حب دام سـنين، منتـصراً بحرب تُخبر عنها أحفادك يوماً ما.

وجههـا الذي حـوى عينين صافيتين كسـماء القلـب، رقيقتين كالماء المُنهمر من المُقل، دافئتين كشـعاع الشمس السـاقط، تنظر إليهما؛ لترى نفسـك، لتسـافر فيهما كلما دقّ الصمت أبـواب الحديث، وذاق القلب طُهر الحب، تاركاً روحك كالذي يترك نفسـه للأمـواج لتحمله لأعلى، ثم تهبط به، فتحمله أخرى، وهو مُسترخٍ تماماً كأنه في دُنيا أخرى.

****

آلاف الذكريات تسـكن هنا خلف باب بيتك الدافئ، الذي صدّ البرد، وطرد الخوف من ينابيع الصدور، وضمّ قلوباً صغيرة ترى الفرح بالرغيف، وتنسى الحزن بأبسط الهدايا، وتُعين على الإيمان، وتُوقظ الرحمة في المواقف التي تستدعيها، وتُصلّي لأجل سعادة الجميع كمئذنة يخرج منها الأذان.

وما بـين البيت الذي خرجت منه، والبيت الـذي خرج منك، وآباؤك الذين أنجبوك، وأبناؤك الذين أنجبتهم، والمشـاعر التي ورِثتها، والمشاعرُ التـي ورّثتهـا، والحب الذي صُنعت منه، والحب الـذي صنعته، والتربية التي نشـأت عليهـا، والتربية التي قمـت بها، والبيئة التي عشـت فيها، والبيئة التي هاجرت إليها، والعصر الذي شاهدته، والعصر الذي تشاهده،

والتقاليد التي عاصرتها، والتقاليد التي تُعاصرها، تتجدّد أيها الأب، وتتغيّر ملامحك، ويُصبح نصفك معجون بأطياف الماضي، والنصف الآخر معجون بحاضر تُنكره.

ويشــهدُ ضوء المصابيح المُعلّقة، والشــمس المُحرقة، والمرايا المنصوبة على الجدران، المسنّدة بلوح خشبي، وألبومات الصور القديمة التي حوت طفلاً صغيراً تُمســك أمه يديه وتحــاول إضحاكه، ووجه رفيقة العمر التي شــاركتك الأمور، وأضفت السرور على كآبة الأيام، وحجبت شــمعة بيتها عن العيون والرياح، وتركت جوارها مســاحة واسعة تتسع إليك، وملامح أبنائك الذين أخذوها منك، وتركوا لك التجاعيد، أنّ الحياة المُوحشــة قد ذهبت بطفولة قلبك إلى أرض جافة.

خلف جفون عينيك تسكن مئات الوجوه التي لم تعد على قيد الحياة، وآلاف الوجوه التي تألفها وتراها كل حينٍ وآخر، وفي أعماق ذاكرتك مئات الأســماء بلا صاحب، وآلاف الأســماء التي تحفظها، وتعرف أصحابها فرداً فــرداً، مــن أصدقاء الطفولة، وأبنــاء العائلة والأخــوال، ورفقاء العمر في مراحل التعليم المختلفة، وزملاء العمل، وأبناء القرية والعشــيرة، وسائقي السيارات، وأصحاب المطاعم، وغيرهم الكثير.

وحدك تعرف هذا القدر الهائل من الوجوه والأســماء، وتحتفظ بكل هذا في رأسك في ملفات كثيرة، تميّز الأشخاص، وتعطيك الأسماء عند ظهور أصحابها.

ولعلّ هذا ما تعجّب منه أبناؤك، وجعلهم يسألون عن معرفتك لهذا العدد من الناس، وكانت إجابتك عليهم أن رأس الأب كالخريطة عليها مئات الدول، وقلبه كالوطن يعرف الجميع.

خلف ضلوع صدرك ضوء شفاف يُوقد من قلبٍ مُبارك، لا يتطلّع إلى زائر يحمل العبء معه، يئسَ من قدوم الآخرين، وآمن بنظره للسماء والتأمل فيها، لعلّ الله ينظر إليه ويُولّه قبلة يرضاها.

يُناجي بخفّته كالثياب التي عليه، وبثقله كالحزن فيه، وبتيهه كنجوم ضالة، وبتعبه كالمحاربين، لم تنته معركة إلا وتلتها أخرى، ولم ينته حزن إلا وجلب إخوانه الأوائل، وأجلسهم على مائدة الليل، ونصب جِلسة التشاور، وطرح سؤاله المعلوم: أيُّنا سيريه الليل في صورته السوداء؟

❋❋❋❋

المشهدُ العاشــر

مـا قبــلَ الــوداع

كيف تعرف تلك الجميلة النائمة تعباً مقدارها عندك؟

وهـي التي ما كشـفت يوماً عن سر واحد مـن أسرار بيتك، ولو على سـبيل الفضفضة، وكتمت في نفسـها ولو كان هذا على حسـاب راحتها، وما عاتبت على غيابك وتأخـرك عن الرجوع لحظة قدومك، بل جمعت شوقها ونثرته فوق رأسـك تقديراً لأعبائك، وأخّرت شكواها حتى تطمئن، ثم طرحتها بين يديك وتدلّلت بأنوثتها بعيداً.

كيف توفيها حقها؟!

وهي التي لم تنمْ ليلة وأنت غضبانٌ أو مُتعب، ولم تنتظر مُقابلاً لحسن معاملتهـا لك، وحرصها على التجديد الدائم في كل شيء، من مظهر وكلام واسـتقبال، فتكون كالعروس في ليلتها، ويفيض كلامها بالمشـاعر، ويطرد استقبالها لك أي غربة أو كربة أو همّ من هموم الحياة.

ضحّت معك بكل شيء، وتعكّر صفوها من كثرة المحن، ومسـئوليات العائلـة، وتربية الأبناء، إلا أنها بقيت واضحة أمامك؛ لترى نفسـك فيها، ولتعلـم مقدار الحُسـن الذي يقف بين يديك، وتـراه عينك مع كل مرة، كأنها تراه لأول مرة، ويرقّ أمامه قلبك كما رقّ أمام النظرة الأولى، وتقف مسكيناً أمام زوجة عظيمة تُرتب هندامك، وتمسح حذائك، وتُقبّل يديك كأنك والدها الكبير، أو كأنك وليدها الصغير الذي لم يكبر.

لا تُجـبرك على الحديث حال ضيقك؛ لأنها تعلم أنك قد تكون سـيئ

المــزاج، لكنها رغم ذلــك عرفت كيف تجعلك تبــوح، فهيّأت لك الأجواء لترتخــي أعصابــك، وذكّرتك بوجودهــا لديك، وأنها معك حتــى النهاية، وهامت إلى عناقك حتى ذهب الحزن، ففتحت لها الأبواب، وبحتَ لها بما في قلبك، وهي تسمع وتُحلّل، حتى تجد معك حلّاً وتنتهي الحيرة.

ولأنهــا كانت حقيقية معــك، ولم تتوار خلف الأقنعــة، جذبتك إليها بصــدق المحبين ودام الترابط، وعــبّرت عنها المواقف التي أظهرت لك من هي حقّاً، فتشــاركتم الحب النابع من الأعــماق، ونمت العلاقة بالإصغاء، والتواصل المنفتح، وتبادل الأثقال، وطرح العناد الذي يســتنفذ الطاقات، ويُعيق الســعي، ويهــدم التفاهــم، ويُضلّل المشــاعر، فيخطئ الحدس، ويفسد صفو العلاقة.

ولأنكم زرعتم الحب في الماضي، وخلقتم له طقســاً مُناسباً، وسقيتموه بعباداتٍ وأحاديث ورحلات مُشــتركة، أصبح هذا الحبّ وما نتج عنه من أبناء وعائلة، هو محور الحياة، وكل شيء آخر أصبح هامشياً.

****

النائمة تعباً من طول الانتظار، المُســتيقظة التي تنتظر، المسكينة التي تعشــق، العشــق الذي يُزهق الأرواح، الروح التي تغرق في بحر المشاعر، الشعور الذي يسرق كل نبضة قلب، القلب الذي يخنق ويحبس الأنفاس، النفس الذي يتباطأ، البطء الذي يشــنق المُذنبين، الذنب الذي لا يُعاقب

عليــه القانون؛ القانون الذي لا يفقه شــيئاً عن العلاقــات، العلاقة التي تحرق العيون، العين الواسعة كمحيط مظلم، الظلمة التي تعتلي الجفون، الجفــن الذي نــام تعباً على جفنها الآخر، وغطّي عينهــا المُتعبة من كثرة الضوء، ومن قلّة الراحة.

الواقفــة كالأعمدة المُرتفعة، الارتفاعُ الــذي يُظهر الرؤية لأبعد مدى؛ المدى الممتد أمام أقدام الســائرين، السائرة التي تسيرُ حِذو حذاء زوجها، وتراقبــه وهو يُمهّد الطرق، الطريق الذي يقصر أمام خُطى الأقدام، القدم التي تسير في طريق لا نهاية له، ولا ملل منه أبداً.

معك هي طالما أنت معها، معها أنت طالما هي معك، وطالما أنتما معاً تقرءان الجمل من يمينها وشــمالها فتُعطي نفس المعني، وتتذوقّان الأيام بأفراحها وأوجاعهــا فتعطي نفس الطعم، وتعيشــان اللحظات بسرعتها وبطئهــا فتُعطي نفــس الوقت؛ الوقت الذي يمــضي كالبرق معك، ومعها كالبرق يمضي الوقت!

الليّنة إذا علت أمواج الغضب، الشــديدة إذا انخفضت سماء الحلم، الكريمة إذا أتــت أفواج الضيوف، البخيلة التي تحرم نفســها من الكثير؛ لتنعــم العائلــة، المُغامرة التي لا تســأل عن المصير، الزّاهــدة عن الدنيا وزينتها، المُتعبّدة في أحلك الليالي، الدّاعيةُ لأجلك في صلواتها لتنعم بعمر طويلٍ.

لطالمـا تقدّمتِ الأوجـاع وتحمّلتها، وتأخّرت عـن الأفراح وهي التي حَمِلتها، وسـاقت إلى الجمع السرور، وسَـقَتِ الحـمام وأصناف الطيور، وألقـت على المسـاء حنينهـا كأنّه وسـادة مُمتدة، يضعُ عليهـا الجميع رؤوسهم، وترتاح عليها الريح من مشاويرَ بعيدة.

تُرتّـب حياتها بما توافر من نقود، وتقـودُ عجلةَ البيت دُون عجلةٍ أو تسرُّع، وتَخلِقُ جوّاً مُختلفاً يُذهِبُ الرّوتين القاتل، وتبتدع صوراً مُدهشـةً لبيتها البسيط، وتبقى الأم الحنون التي تُطعم الجميع من يديها، ويغلبُ صمتهـا حديثهـا فتتأمّل الوجـوه، وتغرق في هدوئها المالـح كأنها لوحة رسمها فنان ليس لها أن تتكلّم ولا أن تَلوّح بيدها لأجل شيء.

عيونهـا تحـكي الكثير، ولطالمـا حَكَـتْ، فالنّظرةُ يخـرج منها كلمة، والنّظرات تملأ الأسطر، ومع أوّل غِمضة تكتمل الصورة، وتنتهي الكلمات؛ الكلـمات التي تنتمي إلى لغة لا يفهمهـا الكثير، ولا تُترجم فوق الصفحة إلا من خلال عيون تعكس النظرات إلى كلمات، كما تصنعُ المرآةُ بالوجوه.

****

طالَ الطريقُ جدّاً، تتأمّل رحلتك في جُرح الصُّبح، والبردُ شديدٌ، وترجو الغُفران.

تتسـلّلُ إليك مشـاعر الخوف عندما تُغادرُ الأماكـن القريبة جداً إلى قلبك، وتسـمعُ أبوابها وهي تُغلـقُ، وتمشي صَوب دربٍ أمام وجهك دون

أن تلتفت، وفي داخلك شعورٌ ينمو، أنّ المكان الذي ستخرج منه لن تعودَ إليه بعد الآن.

شــعورٌ يُلاحقك، لا كظلّــك هذه المرّة، وإنّما هو قريبٌ من أنفاســك، يُطلــقُ في أُذنك أنّة الرّحيل التي تُشــبه عزف الكَمان، دُون أيّ خوف من مُلاحظتك، أو مُراعاة منه لخوفك، أو تقدير لسنّك.

هُو الذّي أنســاكَ المظلّة مع علمك أنّ المطر لن يتوقّف لأيام، وجعلك عُرضةً للمطر وحدك، وسخر منك؛ لأنّك لم تستطع الرّكض، وتحتمي بأحد الأســقُف، وجعلكَ عائقاً أمام المارّة لا يتحمّلون السير خلفك، ولا يُقدّرون ضَعْفك، ولا يَمُدّون لك يداً، ولا يُســاعدونك على ركوبِ راحلة، أو وســيلة نقل، وجعلَ الصّورة أمامك فارغة، وغزاكَ بالوحدة، وملأ عينيك بالأسى.

هُو الذّي أسقطَ الأوراق من شجرةِ عُمرك ورقةً ورقة، دُون أن تشعر، وألهاك بالطُّرق، وطرَقَ الشــجرة من جذورها، وألهاك بفصول السّنة التي تُزهرُ فيها، وســلّط شُــعاعه على خريفك، وألهاك بالأولاد، وشغل الجميع عنك فلم ينتبهوا أنّ الشجرة التي كانوا يَحْتَمون فيها فقدت أوراقها!

هــو الذي خَطَفَ عائلتك إلى عالمٍ آخر، وتركك وحيداً بلا أصل في فناءٍ كبير، وجعلك تحمل الماء والورد إلى قبورهم، وتزرعه هُناك، وتكشفُ عن سُــؤالك الذي أخفيتــه ذلك اليوم، أول يوم صعــدت فيه على المقابر مع

والدك، أول يوم زرعتَ فيه وردةً على قبر، سألتَ نفسك: أزرعُ الورد على قبور الأجداد، فهل ثمّة أحد ما سيزرعُ الورد على قبري؟

ظننتَ حينها أنّ ذلك الأمر من المُستحيلات، حتى دارتِ الأيّامُ سريعاً، وآقتربت إقامتُك هناك؛ إقامة أبديّة لا عودة منها إلا يوم البعث.

إنّــهُ المــوتُ الذي لن يتأخَر، يــأتي في مَوْعِدِهِ المُحــدّد، يعزفُ ألحانهُ على مهلٍ، ودُون أيّة عجلة، وينشرُ رائحته حولك فلا تشُــمّ رائحة أخرى، وصورته أمامك حتى تُصبح كمثل شجرة تنظر طول اليوم إلى السّماء.

❋❋❋❋

إنه ليل الوداع، لطالما جاءك مُحمّلاً بغبار الســنين، وجرّ معه عواصف الخيبــات عــلى عتبة بابك، حتى بــدا بيتك كأنّه مهجــور، ووقف أمامك بجنود الحزن المســلّحين بأسلحةٍ لا تُصيبك إلا في مقتل، وبذكرياتٍ لا تفرّ منها، وتترك وجهك شاحباً.

يبدو كســاحة واســعة تركض فيها بين مراحل حياتــك، من طفل بلا أحذيــة يــدور في فناء البيــت، إلى صبي يجوب الأرض القتيلــة، إلى يافعٍ يتوهُ في الفلوات، إلى راشــدٍ يمشي في الطرق الصحيحة، إلى راعٍ يهتمّ بكل المنافذ والنوافذ، وما نفد، ومن وفد، ومن صلّى، ومن ولّى، ومن أكل، ومن في الخارج، ومن نام، ومن ســهر، إلى مُشــاهدٍ يُشاهدُ الحياة وهي تصنعُ صنيعها معه كالذين سبقوه، وتغرُّ نسله باللهو والزينة.

ويبدو كبحرٍ تغرق فيه القوارب، وتتوه فيه السفن، ويستنجد من بطشه الغرقى، ويغرق فيه أمهر السبّاحين والغوّاصين، ولا تخرج منه الجثث إلا بعد أن تتنازل آخر موجةٍ وتُعطِها لليمّ، ثم تعودُ إلى أخواتها لتنظر في أمر القادم من بعيد.

إنّك رغم طوله صبور تصرفُ جنود الحزن واحداً تلو الآخر بعدما قدّمت لهم حسن الضيافة، وسمعت أنينهم، وضمّدت جراحهم الواسعة، ثم بعد رحيلهم نسيت مجيئهم مع أول نسمة هبّت من النّوافذ ها هُنا، ومع أول وجه حلّق قرب وجهك من عائلتك الصغيرة، كأنهم عصافير الفرح التي تحمل حزنك لأعلى.

وإنك رغم هزّاته ثابتٌ ثبوت النخل في مكانها، مهما قامت العواصف أو سكنت، وآشتعلت الحرائقُ وأُخمدت، ودارتِ المعارك وانتهت، وصعد على جذعها أُناسٍ وسقطوا، وحصد الحاصدون تمرها ونزلوا، تبقى تُظلّلُ على ما تحتها من نباتاتٍ كما تظلّلُ أنتَ على أهل بيتك.

وإنك رغم الذي ينتظرك في الغد مُطمئن طمأنينة صيّاد صلّى الفجر وأحضر شِباكه، وصعد على متن قاربه، وتنقّل به خلال نهرٍ أو بُحيرة، ثم رماها في الماء وهو على يقينٍ أنّ رزقه في الأسفل سيرى النور في الأعلى، وأنّ رزق السّاعين لا ينضُب.

مُطمئنٌ، حتى ولو كان الذي ينتظرك هو الموت!

تُلقِــي عليها حنينك؛ لأنّك لــن تراها بعد اليوم أبــداً، وتُخفي تحت جِفنــك جزيرةً من نُعاس، لنومٍ طويلٍ قــادم، ولا تُريدُ أن تُغمض عينيك؛ لأنّك ما مللت النّظر إليها، وما شبعت من قُربها؛ لأنّ الحياة كانت قصيرة في الجوار، فما أشدّ وهم العالم، بالأمسِ القريبِ تفتحُ عينيك؛ لأجل الحياة، واليوم يُريد أن يُخلّص الحياة منك، كأنّك وُلدت لا لتحيى، وإنّما لتموت.

تشــعرُ ببرودةِ جسدك، وتســمعُ من صوتك أجراس الرحيل، وتُراقبك وأنــت تنظرُ من النافذة إلى الطير المُهاجر في الســماء، وهو يطوف بلادك إلى أن يرحل، وتُشيرُ إليك؛ أن مَهلاً أيُّها المهاجر، لمن ستتركنا؟

وتكونُ خلفك وأنت تمُرّ على الأولاد، وتُمرّرُ يديك على رؤوسهم، وتُقبّل جباههم، وتَرفعُ الغطاء الساقط على الأرض، وتضعه عليهم، وتبكي عندما تراك تنظر إليهم طويلاً، كأنّك تنظر آخر النّظرات، وتُودِعُ آخر القُبُلات.

وتنظرُ نحــوك، وأنت تتفقّدُ البيت الذي لطالمــا هربتَ إليه، لا منهُ، وتَمســكُ يديك التي صارت كالثّلج حين يُصبح، وتمسحُ دمعتك التي تأكل فرحتها، وتخلعَ الحُزن عن صدرك، وتجلب إليك الأمان بعيونها التي لطالما كانت شُبّاكاً تلفُّ به قلبك.

وتذهبُ لتبكيك بعيداً كأنّ للبُكاء أرضاً، وأرضُ البُكاء للنّساء الوسائد، فتــئنّ طويلاً، وأنينُ الأحبّة يُبكي الحصى، وتغتالُها الوَحدةُ حتى تصير قُبّعةً يلهو بها المطر، أو صفحة يعبثُ بها الهواء، أو ورقةً تسقط من الريح.

لن تكــون لها منديلاً بــين الأصابع والأهداب، ولا مرهــماً لكُلّ جرح وندبة، ولا ضوءاً في أوّل النّهار، ولا سَــكَناً في آخر الليل، ولا ســامعاً لكُلّ كلماتهــا، ولا مُنصتاً حتى وإن كان الأمرُ تافِهــاً، ولا ملاذاً آمنا كالأذان أن تعال إلينا تنجُ.

لن تكون لها بعد الآن...

لن تكونَ لها بعد..

لن تكونَ لها..

لن تكون..

لن.

****

ها هــو الزّمن الذي كان، وها هــي النّهايةُ التّي ســتكون، وها أنت الذّي كنت، وها أنت الذي ســتكون -كنتَ في عِداد الأحياء وســتكون في عِداد الموتى- وها هي يدك باردة رُغم كثرةِ الأيدي التي تمســكها، وها هو قلبــك دافئ رُغم وحدته الموحِشــة، وها هي عيناك تــرى ملائكةَ تُحلّق بعيداً ونجمة تُنير على طريقٍ من سحاب، ولا ترى الحاضرين حَولك رُغم الزّحام، وها هو الموتُ يقترب منك، ويضع أمامك هاويةً لا تسقط فيها.

وتدخل في سَكَراتِهِ فتموتَ مِراراً في غيبوبة النوم، وتصحو؛ لتجد ساعة الجِدار تدُقّ، والحاضرين قلّوا، ويبدو الموت في عينيك كوردة تقطفها كلّما

نمت، وتشُمّها طويلاً حتى تظنّ بأنك ميت، لكنّك عندما تقترب من حافّة الموت الحقيقيّ تستيقظ!

وفــور أن تخلو بنفســك قليلاً ترفع يداك –للمــرة الأخيرة- وتقول: يا ربّي أدفئني بالحُبّ في قلبي، وثبّتني بالإيمان، وهَبْني أماناً أُقدِمُ به عليك، وخُذني إلى ديارِ الخُلُود.

وتترك على خدّ عائلتك القُبلات، وتحت وســادة نومك الوصايا، وتنظر إليهــم نظر المغشيّ عليه من الموت، وتضمّهم إلى صدرك، ثم تأخذُ نفســاً عميقاً يحمل رائحتهم إلى داخلك، ولا تُخرجه أبداً؛ كي تحتفظ به لحياتك الأخرى؛ حياتك التي تفتح أحضانها إليك.

****

وردةٌ على خدّ الحياة

وجدتُ وردةً بين كتاب أُحبّه.

وردةٌ ذابلةٌ كحال الورقاتِ التي ضمّتها لشُهور.

وردةٌ تتحدّث بلساننا.

أخبرَتني أنّها لِفتاةٍ وليست لي.

تركتها؛ لأنّني لستُ فضوليّاً.

وكحال أيّ مُؤنّث، دعتني؛ لأعرف قصّتها.

الــوردة كانت نائمــةً على هذه الورقــة؛ لتحجب اســم صاحبتها عن العيون.

الإســمُ الذي لمّا وقعت عليــه عيني وقع الكتابُ مــن يدي، وظهرت أمامي صورة الفتاة.

الفتاةُ التي كنتُ أُحبّها سرّاً.

التّي نسيتُ حُبّها تماماً كالوردة.

الوردةُ التي كنتُ أريدُ أن أُهديها.

الوردةُ التي تركتُها على خدّ الحياة.

تمّ بحمد الله وعَوْنه وتَوْفيقه.

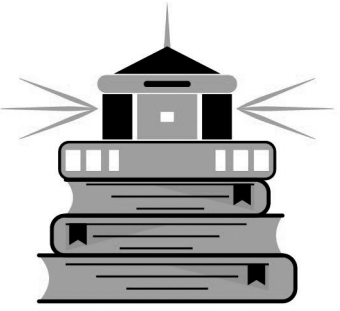

منشورات الفنار

ترحب منشورات الفنار دائمًا بآراء، ومُقترحات قرائها الأعزَّاء، وتدعوهم دومًا لإفادتنا بملاحظاتهم لتطوير منتجها الثقافي على الدوام

راسلونا عبر بريدنا الالكتروني

elfnaar@gmail.com